



من الشرق والغرب



تاريخ علم الاجتماع

بقلم

جاستون بوثول

ركتوراه في الأدب والفنون
والمجالات الرئيسية لعلم الاجتماع

ترجمة وتعليق

غنيمة عبدون

مراجعة

دكتور جمال حسن صادق

HISTOIRE
DE LA
SOCIOLOGIE
PAR GASTON BOUTHOUL



PRESSES UNIVERSITAIRES
DE FRANCE



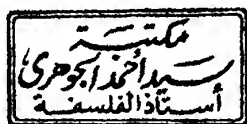
من الشرق والغرب

تاريخ علم الاجتماع

بقلم هاستون بوتول
رئيسة قسم التاريخ والفنون
في جامعة ألبرتا

ترجمة غنيم عبود
مراجعة دكتور جمال حسن هارن

البَابُ الْأَوَّلُ
عناصر تكوين علم الاجتماع والمبشرون به



الفصل الأول العصور القديمة والعصور الوسطى

إن التقدم الملحوظ الذى كملت صورته فى التفكير فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، يظهر بوضوح فى مراحل أزمة من الأزمات عندما تتعدى الحوادث والاضطرابات ، الأطر ، الاجتماعية التى تعودها الناس والحلول التقليدية التى درجوا عليها .

وفى أية دولة نظمها ثابتة وهيكلها الاجتماعى موحد ثابت ، يظل تفكير الإنسان راكدا بدون أية إثارة . أما الحوادث غير المرتقبة ففرض مجهودا من التأمل والتفكير والتكيف من جانب المثقفين .

وعلم الاجتماع هو العلم الوحيد الذى تابع منذ مولده دراسة الظواهر التى فى طريقها إلى التغيير المستمر ، وكل مرحلة من مراحل هذا العلم مرتبطة تمام الارتباط بظاهرة من ظواهر عدم الاستقرار الاجتماعى .

ولكن لا يمكن أن تنشأ أزمة كيميائية تثير آلياً تطوراً ما أو تقدماً ما . وشرط التفكير الاجتماعى وجود نخبة مثقفة أو وسط ثقافى ، يحاول أن يحلل وأن يتعمق العناصر المباشرة للتجربة ، وأكثر من ذلك عليه أن يصنفها بشيء من الحرية دون أن يكون خاضعاً لاتجاه واحد مفروض عليه . وقد وجدت كل هذه الشروط مجتمعة للمرة الأولى فى بلاد الإغريق التى ازدهرت فيها كبريات المدارس الفلسفية مثل مدرسة السفسطائيين ، ومدرسة أرسطو ، ومدرسة أفلاطون فى أثناء المرحلة المضطربة التى كان مركزها حرب البولينيز .

وفي ظل كل مجتمع مبادئ اجتماعية كاملة لا تتبلور إلا نادرا . ومثل هذه المبادئ لا توجد إلا في تنظيمات المجتمعات التي هي أكثر بدائية . وكل شيء يمضي في مثل هذه المجتمعات يبدو وكأن القوانين والحقوق والتنظيم العائلي والاجتماعي ناتجة عن عدد معين من المبادئ والدوافع . ومن المهام الرئيسية لعلم دراسة الإنسان والتاريخ استخلاص هذه المبادئ وهذه الدوافع من جملة الحقائق التي تقوم على دراستها مثل هذه العلوم .

وقد نقل لنا المؤرخون من علماء الاغريق والرحل منهم بعض الصور عن الشرق القديم وتنظيماته الاجتماعية ، وتعكس هذه الصور ما كان للطقوس الدينية من مكانة عظيمة عند تلك الشعوب . ولقد أشار هيرودوت Hérodote إلى أن ايديولوجية المصريين القدماء مثلا كانت نوعا من التأييد للتنظيم الاجتماعي الذي تصوره بالنسبة للدين .

وكان التسلسل في مراتب الالهة متمشياً مع مثيله في الناس ، وإنشاء المملكة عندهم عمل من أعمال الالهة . وفرعون الذي كان بمثابة وسيط بين العالم السماوي والعالم الأرضي ، اعتبر نفسه إلهاً كذلك . والحياة الآخرة من وجهة نظرهم ماهي إلا امتداد للحياة الدنيا ، وهذا ما يفسر لنا الأهمية الكبرى لبناء المقابر وتحنيط الجثث ، وكل ما يتصل بتنظيم ما بعد الحياة الدنيا ورفاهيته . وقد أتاح هذا المفهوم المادي للبقاء لعلماء الآثار أن يفهموا حياة قدماء المصريين وأفكارهم أكثر من تفهمهم لطبيعة المجتمعات التي اختفت بدورها بين غياهب الماضي .

وللمجتمعات الهندوكية التي هي أكثر قدماً .. فلسفة اجتماعية مرتبطة بالعقائد الدينية البراهمية ، ورغم أن علم الديانة الهندوكية مليء بكثير من

الأساطير والخرافات فإن به حقائق اجتماعية آمن بها الناس في ذلك العصر على أنها عقائد دينية .

ونظام الطوائف هو الدعامة الأساسية للمجتمعات التي تعتنق الفلسفة البراهمية ، فالتبيرات والتفسيرات التي يضيفها الفلاسفة البراهميون على وجود الطبقات والنتائج التي يستخلصونها تدل على أنه كان نظاماً متماسكاً في المحيط الديني ، وكذلك في محيط التنظيم المادي والمهني .

وفي أمريكا ، قبيل عصر كولومب ، كان هناك بعض المفاهيم الاجتماعية قبل ظهور المبادئ والمعتقدات التي هيمنت على تنظيم المجتمعات الأمريكية ، وكانت هذه المجتمعات ذات خصائص تختلف الواحدة عن الأخرى وخاصة المجتمعات ذات الطابع الإلهي ، ويقصد به المجتمع الإقطاعي والعسكري .

وربما ينحصر في هذه النقطة بالذات ، الطابع المميز للمجتمعات الشرقية ، فلم يقم التنظيم الاجتماعي فيها على مبادئ دينية فقط ، بل إنه يعتبر كذلك امتداداً مباشراً لعالم علوي .

وكان الإمبراطور في الصين القديمة ، وخاصة في عصر الإقطاع ، يعتبر " ابن السماء " ، كما أن الميكادو يعتبر في اليابان " إلهاً " ، ومع ذلك فقد اهتم المفكرون الكلاسيكيون في الصين ببعض المشكلات الاجتماعية ، ولكن هذه المشكلة ظلت مندرجة تحت مذهب نفعي ضيق وتحت مبادئ أخلاقية قاسية كل القسوة ، تدعو إلى عدم مبالاتها بالآلام الأفراد وخاصة النساء منهم .

ولم يُلحَ بخير علم الاجتماع إلا حينما تجردت التأملات الاجتماعية ؛

ولو جزئياً ، عند بزوغ أول خيط من الروابط الدينية . وكان الذى يربط المدن الإغريقية ويوحد ما بينها .. تلك المعتقدات الدينية برغم اختلاف المنظمات السياسية فيما بينها . وقد أتاح وجود المجتمعات المختلفة فى المدن الإغريقية ظهور الرواد الأوائل لعلم الاجتماع .

السفسطائيون Les Sophistes

والفلاسفة الأوائل من الإغريق الذين عالجوا بعض المشكلات الاجتماعية هم السفسطائيون . وقد تزودنا بأفكار هؤلاء من خلال كتابات أعدائهم ، فهؤلاء لا يذكرون مؤلف أفلاطون «بروتاجوراس» أو مؤلف أرسطوفان إلا للنقد والسخرية . ومهما تكن الأفكار التى احتوتها هذه المؤلفات فإنها تعتبر فتحاً جديداً فى الميدان الاجتماعى من ناحية ظهور الطريقة العلمية فى معالجة المشكلات الاجتماعية أو غير الاجتماعية . وكانت طريقةهم قائمة على الملاحظة والمقارنة والنقد .

ولا يثق السفسطائيون فى التفسيرات المألوفة ولا فى الأساطير والخرافات . وهم ينددون بالأفكار والعادات القديمة التى كانت تسود المنظمات الأثينية ، برغم التطور الهائل فى التجارة والثقافة لهذه البلاد .

من أجل هذا بدأوا فى البحث عن قانون طبيعى قائم على احترام الشخصية الإنسانية . وقد عملوا ما فى وسعهم على تحرير الفرد الذى ينتمى إلى المجتمعات القديمة . وقد انصبت كل بحوثهم على مسائل أخلاقية ، فحاربوا الرق والقومية العنيفة التى اشتهرت بها المدن الإغريقية . وهذه أول مرة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، يرى المرء فيها مناقشات حرة حول مسائل اجتماعية أدت إلى خلق العبقورية الإغريقية فى عالم ظلت فيه الفلسفة سقيمة على الفهم ومقصورة على المشتغلين بها .

وقد نهت مناقشات السفسطائيين فيما بينهم أذهان المفكرين ووجهتهم نحو التفكير والتأمل في الظواهر الاجتماعية .

أفلاطون Platon (٤٢٩ - ٣٤٧ ق . م)^(١)

ولد أفلاطون في أثينا وهو ابن « أرسطون » ولما بلغ العشرين من عمره تلمذ على سقراط ولازمه نحو ثمانية أعوام ، فسمع مناقشاته ودون الكثير من آرائه . وبعد أن نفذ الحكم على سقراط ، هاجر إلى بلدة « ميجارا » القريبة من أثينا ، ثم زار آسيا الصغرى ومصر وإيطاليا وصقلية . وقد اهتم بدراسة المذاهب الفلسفية الشائعة في زمنه ، وشملت دراسته مذاهب الفلسفة الشرقية كالهندية والفارسية .

استهل أفلاطون كتابه « الجمهورية » بفصل عن مامية العدل ، واعتقد أن أحسن تعريف لحقيقة العدل يكون بتحليل المجتمع وتحليل النفس البشرية ، ولكنه بدلا من أن يبدأ بالفرد وينتقل إلى المجتمع ، نجده يقوم بتحليل المجتمع البشرى أولا ، وحجته في ذلك أننا نرى الفرد في المجتمع على صورة أكبر وأوضح ؛ ففي المجتمع بطبقاته وتجارته وصناعته وأنظمته العسكرية والسياسية تظهر العناصر الخفية للطبيعة الإنسانية ، وتتخذ شكلا أكثر وضوحا عنها في الفرد نفسه^(٢) .

إن خلاصة أفكار أفلاطون نجدها في مؤلفه الرئيسى « الجمهورية » الذى يعرض منهجا حقيقيا للفلسفة الاجتماعية .

ومن أجل هذا فأفلاطون لا يرسم تخطيطا اجتماعيا للدينة على ما هي

(١) من تعليقات المترجم

(٢) للمترجم

عليه ، بل على ما يجب أن تكون عليه . وهناك مشكلة أخرى شغلت
بال أفلاطون ، ألا وهي كيف يمكن تجنب الاضطرابات والقلق التي
لا تحدث والتي تسبب تخريباً ودماراً مما يؤدي إلى شقاء بلده ويؤسه ؟
وهو يقول في هذا المقام :

« يجب علينا أن ننظم بلادنا بطريقة مدروسة وثابتة ،

وهذا يمكن القول انه منذ عصر أفلاطون كانت تغلب على طابع
الفلسفة الاجتماعية دراسة مظاهر الاضطرابات في المجتمع ومحاولة
البحث عن علاج لها .

ولكن نتجنب هذه الاضطرابات وتلك القلاقل ، يوصي هذا
الفيلسوف بالرجوع إلى المنظمات القديمة لبلاد اليونان ، ومثله الأعلى
في ذلك التكوين الذي لا يتغير لمدينة « أسبرطة » من حيث صرامته
وأرستقراطيته وعسكريته . وهو يضيف - كما يكتمل مثله الأعلى - إلى
ذلك النقيض من التبادل بين المدن الإغريقية وعدم الثقة في المثقفين وفي
الشعراء ذوي الحساسية الشعرية وأصحاب التجديد المستمر ، ويدعو
كذلك إلى إقامة نظام من الطوائف .

وأخيراً فلتلأ في أيّ تصدع في التوازن الاقتصادي والسياسي ،
يلزم تحديد عدد السكان في المدينة التي تتخذ نموذجاً لهذا النظام ، ولكي
نحافظ على عدم زيادة السكان بتلك المدينة النموذجية يشير إلى أن على
القضاة أن ينظموا عدد الزيجات بحيث لا تتخلف عن فوضى الزواج زيادة
في عدد المواليد ، ويؤاخذ المواطنون الذين ينجبون أطفالاً بعد تعديدهم
السن المقررة والذين لا يتبعون الشروط التي نظمها القانون .

يقول اسبيناس Espinas : « يعد أفلاطون أكثر فلاسفة السياسة مثالية وواقعية في الوقت نفسه ، ويعتمد مفهومه الاجتماعي على مفهومه السيكلولوجي ، وهذا المفهوم الأخير يبنى على تحليل الاتجاهات الإيجابية للروح الإنسانية .

ويقسم أفلاطون الروح ثلاثة أقسام : فهي تكون من الرغبة (الرغبة في الأشياء المادية) ومن القلب ومن العقل ، والمهارة تكون في التحكم بين موازنة هذه الاتجاهات الثلاثة ، وتوازن بين الفضائل الثلاث التي تتصل بهذه الاتجاهات : الاعتدال والشجاعة والحكمة . ويلزم أن يتشكل هذا التوازن للروح الإنسانية في المجتمع الذي يجب أن يتشكل من ثلاث طبقات على حسب صورة الروح : طبقة الصناع ، وطبقة المحاربين ، وطبقة القضاة والفلاسفة .

وعلى عكس المجتمع الإقطاعي .. حيث الطبقتان الحاكتان ، أي طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين هما في الوقت نفسه كبار ملاك الأرض ، يريد أفلاطون أن يكون حق الملكية لطبقة الصناع فقط ، أما الطبقتان الأخريان فعليهما أن يحققا نوعاً من أنواع «الجماعية» Communitarisme التي تهدف إلى سيادة الأخوة وعدم حب الذات . ويجب أن يطبق هذا النظام بالنسبة لهاتين الطبقتين على الأسرة ، فيكون اندماج هذه الأسر معاً لوقت معين وتحت سلطة القضاة لمراقبة تنفيذ هذا النظام بكل دقة وعناية ، وسيترتب الأطفال معاً على أنهم إخوة متحابون على شريطة أن يتناسوا آباءهم الحقيقية .

وقد رسم أفلاطون كذلك خطوط نظرية خاصة بالاضطرابات

الاجتماعية ، وفي رأيه أن هذه الاضطرابات الاجتماعية تنشأ من تعاقب المورثات السياسية المتتالية التي تنتج بدورها عن اختلاف المفاهيم السيكولوجية بين الأجيال المتعاقبة . وهو يرى أن التطور الاجتماعي قائم على التسلط المتعاقب لعدد من النماذج السيكولوجية الدائمة وهي : المنصفون ، والطامعون ، والمستبدون .

ويقوم أفلاطون ارتباطاً منطقياً بين سلوك الدولة وسلوك الأفراد فهو يقول :

« يختلف سلوك الحكومات ، كما تختلف قلوب الناس ،

أرسطاطاليس Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م)

ولد أرسطاطاليس بمستعمرة يونانية يقال لها « ستاجيرا » على ساحل مقدونيا بالقرب من تراقيا ، وكان السلطان اليوناني في ذلك الوقت موضع التنازع بين مدن ثلاث هي : إسبرطة وأثينا وطيبة ، وكانت كل مدينة من هذه المدن تحاول أن تسود البر والبحر ، وأن تكون صاحبة الكلمة في بلاد اليونان . وقد نشأ هذا الطفل نشأة خاصة وأثر فيه ما كان يشهده من ضعف اليونان وفساد أمرهم ، وانتقل من مقدونيا إلى أثينا حين بلغ السابعة عشرة ليتم دراسته ، وكانت أثينا هي الجامعة التي تخرج إليها وفود من طلاب العلم من أوروبا وآسيا وإفريقية .

ونستطيع أن نعد العصر الأخير من حياة أرسطاطاليس عصر الإنتاج العلمي ؛ فلم يكن يستقر به المقام في أثينا حتى بدأ دروسه العلمية والفلسفية والأدبية ، وتتلخص فلسفة أرسطاطاليس من الناحية العلمية في أربعة آراء :

الأول : البحث عن الإنسان من حيث إنه جماعة سياسية ، وهو الفلسفة السياسية .

الثاني : البحث عن الإنسان من حيث إنه فرد من جماعة له حقوق وعليه واجبات ، وهذا هو علم الأخلاق .

الثالث : البحث عن الإنسان من حيث إنه مفكر ، وهذا هو علم المنطق

الرابع : البحث عن الإنسان من حيث إنه مفكر يريد أن يعبر عما يجول في خاطره من صور وحكم ، وهذا هو علم البيان .

وبرغم أن أرسطاطاليس تلميذ لأفلاطون فإنه يختلف عن أفلاطون في أنه لم يعمد إلى تلك المبادئ الخيالية التي عمد إليها أستاذه ، بل سعى إلى الربط بين القديم والحديث عن طريق الحقيقة ، ووضع بعض الأنظمة والمبادئ العلمية التي هي أقوى وأمتن من أنظمة أستاذه ومبادئه . ولقد سماه أفلاطون بالفيلسوف الواقعي ، كما سماه « شيشرون » برجل النصيحة ذى المعلومات الجامعة والفكر الواضح^(١)

إن تفكير أرسطو يتميز بجرأة أقل وبواقعية أكثر من تفكير أفلاطون ، وبعد إنتاجه الرئيسى في الميدان الذى يهتما هو كتابه « السياسة » ، ففيه يقوم بدراسة مقارنة للذساتير السياسية والمنظمات بوجه عام لجميع المدن الإغريقية وبعض الدول المشابهة لها مثل قرطاجنة ، وقد حاول دراسة الظواهر الاجتماعية بالطريقة التى أراد أن يدرس بها الظواهر الطبيعية والظواهر النفسية وما بعد الطبيعة .

ونحن نجد فى اجتماعية أرسطو عدداً كبيراً من التعبيرات ومن

(١) للترجم .

الأفكار التي أصبحت تعبيرات وأفكارا كلاسيكية : مثل هذا التعبير المشهور « L'homme est un animal politique » ، « الإنسان حيوان سياسى » ، أى أنه مرتبط تمام الارتباط بالحياة فى مجتمع ، فلا يمكن فهم الإنسان بمفرده معزولا عن الإطار الاجتماعى الذى يعيش فيه ، وهذه الحقيقة صحيحة سواء بالنسبة لخلود الجنس أو الدفاع عن الحياة والمحافظة عليها . أو تطور الآراء والقوى الأخلاقية التى تعتبر نهاية كمال الإنسان . وهو يبرز تأثير المناخ على السيكولوجية الاجتماعية .

ويقول : إن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية ، أى أنها هى الذرة التى لا تقبل القسمة والتى تكون مع ذرات أخرى تشبهها الجسم الاجتماعى . على عكس فلسفة أفلاطون الاجتماعية التى تقوم على هدم الزواج والقضاء على الأسرة .

وهناك اقتراحات أخرى لأرسطو فى الميدان الاجتماعى كانت بمثابة قواعد هامة لخلق مدارس اجتماعية فيما بعد ، ومن أهم هذه الاقتراحات ما يلى :

يعتبر أرسطو أن المجتمع عبارة عن مخلوق حى خاضع لقانون الولادة والنمو والموت ، وهو يشير إلى أن التغير هو الشرط الوحيد لحياة المجتمعات وتشكل هذه المجتمعات من عناصر متباينة ينتج عنها التسلسل فى المراتب والحكومة وتقسيم العمل . وينتج من ذلك كله نظام من التوازن ، وقد يفقد هذا التوازن نفسه :

أولا — عندما يزداد عنصر من عناصر المدينة فى عدده عن العناصر الأخرى .

ثانياً — عندما ترتفع نسبة مجموعة السكان بطريقة لا تحددها حدود .
ويقول أرسطو في هذا الصدد : إن الدستور القديم يصبح غير ملائم
للأوضاع الجديدة ، فكل دستور يتلاءم مع عدد معين من السكان .

وكان أرسطو مثل أفلاطون ومثل جميع الفلاسفة السقراطيين بوجه
عام تساوره دائماً فكرة الخوف من الفتن والاضطرابات التي كانت تضطرم
بها دائماً المدن الإغريقية ، وكان يعزو هذه القلاقل إلى عدم المساواة بين
الطبقات ، إذن فلا بد للقانون أن يبحث له عن علاج لهذه المشكلة ، ولكنه
يرى أن تحقيق المساواة لا يمكن أن يتم إلا عن طريق التحكم في عدد
السكان ، وهو يقول :

« إذا أراد المرء أن يحدد القيمة النسبية للثروات ، فيسقوده ذلك إلى
تحديد عدد الأطفال ، وبدون ذلك سيعود عدم المساواة إلى الظهور من
جديد . وبذلك تتشكل طبقة من الفقراء ، وقد يكون من الصعب علينا
أن نحول بينهم وبين القيام بثورات »

وبرغم أن أرسطو يثق دائماً في الذاتية الخلاقة فإنه بخصوص السكان
يعتق مذهب التدخل والتوجيه ؛ فهو يتجه في هذا الميدان إلى تحديد سن
الولادة وجعلها إجبارية في بعض الحالات وإلى منعها في حالات أخرى
بفرض الإجهاض أو وأد الأطفال .

توسيديد Thucydide (نحو ٤٦٠ — نحو ٣٩٥ ق.م)

من أكبر المؤرخين الإغريق ، وطريقته التي عرف بها هي أنه يذكر
حقائق التاريخ بكل عناية ودقة ، ثم يحاول أن يفسر أسبابها . ويعد مؤلفه
« تاريخ حرب البلوينيز » من أغنى المؤلفات في قصص الحروب ، فهو

لم يقتصر على ذكر الحوادث ومدح الشخصيات الكبيرة ، بل كان همه البحث عن تفسير الظواهر التاريخية ، وهو يحلل المعتقدات والاتجاهات والقوى والمصالح المتضاربة في هذه الحرب الغامضة . ومع ذلك فقد اختتم مؤلفه هذا بتوضيح الدمار والتخريب الذى لاقاه العالم اليونانى على يديه هو ، لا على يدى عالم آخر ، ويعتبر هذا المؤلف كذلك فاتحة عهد جديد فى فلسفة التاريخ .

وخلاصة القول أن دراسة هؤلاء الرواد الإغريق بعلم الاجتماع من الأهمية بمكان ، لأنهم عرفوا الواقع والاتجاهات التى أتبعث منها فيما بعد جميع المدارس السياسية والاجتماعية . ويمثل أفلاطون الاتجاه المتشدد ، هذا الاتجاه الذى يوجس خيفة من الذاتية والأصولية ويشعر بعدم الثقة فيهما .

وينتمى الفرد فى نظره جسما وروحا إلى المدينة ، ومعنى هذا القضاء على كيان الأسرة التى تتعارض مع كيان الجماعة ، وهو يعتبر أن الدولة لها الولاية الوحيدة على القانون والأخلاق ، وهو يوصى بالرجوع إلى البساطة وإلى التقشف البدائى ؛ وبذلك يعارض كل ارتقاء اجتماعى للأفراد ، وهو يريد تحديد النسل فى طبقات ثابتة لا تتغير وفى أعمال محدودة عن طريق السلطة .

ويمثل أرسطو الاتجاه المضاد ؛ فى اعتقاده أن علم الاجتماع — قبل كل شئ — علم ملاحظة . والمجتمعات عبارة عن مخلوقات حية تكون القاعدة فيها هى الحركة . واختلاف البيئة والتكوين هما اللذان يفرضان عليها الخلافات والاضطرابات .

الفكر الاجتماعي عند الرومان

وبعد أرسطاطاليس لم تجر هناك بحوث اجتماعية تقريباً ، وقد انجبه التفكير الإغريقي فيما بعد إلى ميادين أخرى .

أما الرومان فلم يأتوا بجديد على المفهوم الأصلي لعلم الاجتماع ، ولكن الفكرة الرومانية أدت دوراً كبيراً في علم الاجتماع الوصفي ، وقد أتاحت لهم فتوحهم الفرصة لدراسة عادات البلاد الأخرى ومنظوماتها كفتوح الامبراطور تاسيت Tacite بالنسبة للجرمانيين وفتوح يوليوس قيصر Jules César بالنسبة للغال .

ويمتاز التفكير الروماني بطابعه العملي ، والشئ الغريب حقاً هو أن الفكرة الاجتماعية للامبراطورية العظيمة في الطرف الآخر من العالم تتشابه تماماً مع الفكرة الرومانية ، وزيادة على ذلك .. فإن خصائصها ماثلة لها كل التماثل .

ويقول لوى ويبير Louis Weber : إن تجرد الرومان العلمي لايواتيه غير أهل الصين . لقد أخرج الرومان . مثلهم في ذلك مثل أهل الصين ، رواداً مبرزين في علم الأخلاق مثل شيشرون Cicéron و « سينيك » Sénèque .

وكانت روما الامبريالية هي الواضعة الحقيقية للقانون الحديث والتي عرفت أن تستخلص منه عبر عدة قرون المبادئ الأساسية . وبذلك أمكن الانتقال من ضيق القانون القديم وشكلياته إلى وضع القانون الطبيعي .

وينتج عن ذلك تطور بطيء للحالة العامة للإنسانية والعلاقات الاجتماعية . وتشكل هذه المفاهيم وهذه المعتقدات التي توجه هذه العلاقات ما يمكن أن يسمى بعلم الاجتماع الحقيقي .

الثورة المسيحية

عندما نتحدث عن المنظمات الديمقراطية للبلدان الاغريقية ، يجب ألا يغيب عن بالنا أن هذه المنظمات كانت تطبق مبادئها على قلة من المواطنين . وكان الأرقاء بعيدين كل البعد عن التمتع بهذا الحق ، وكان من رأى بعض الفلاسفة أن للرفيق شخصية خلقية تعدل شخصية سيده ، وأن قتل الرفيق جناية تعدل قتل الحر ، وأن الإساءة إليه تعدل الإساءة إلى الحر .

وقد دعا د سان بول ، إلى تنقية مبادئ الإيمان بعبادة إله واحد من شوائب العادات القديمة اليهودية : مثل الطقوس الدينية وتقديس الأشخاص أو الأشياء ، وقد أدى الأخذ بالمسيحية إلى نبذ فكرة تسلسل الآلهة التي أدت إلى تبرير نظام الطبقات في الحياة الاجتماعية .

وكان المفهوم الجديد للعالم يتميز بروح المساواة ، ويعتبر الجميع سواسية أمام الله ، وهذا يناقض منطقياً نظام الطبقات الذي جرت عليه المجتمعات القديمة . وأصبح القانون وعلم الأخلاق شائعين بين جميع الناس على حد سواء ، ولم يعد الفرد ملكاً خالصاً للبلدية على حسب المؤلف القديم . وأصبحت واجباته الأخلاقية والدينية تفوق واجباته السياسية ، وبذلك لم تعد الدولة هي الخالقة للقانون والأخلاق .

القديس أوجستان Saint Augustin (٣٥٤ - ٤٣٠)

كتب القديس أوجستان مؤلفه « مدينة الآلهة » La Cité de Dieu في عصر من أفسى العصور في تاريخ الإنسانية فقد استولى الأاريك Alaric على روما . وكان لسقوط هذه المدينة وتدميرها وقع في نفوس الذين عرفوها وخبروا ما فيها من ثقافة وعلم وعرفان . وكان للوثنيين نصيب كبير في سقوط المدينة العظيمة ، ولشدة تأثر القديس أوجستان من هذا الموقف أخذ على نفسه تدوين الحوادث الدامية فأخرج مؤلفه هذا .

ويبرز لنا هذا المؤلف صورة جامعة للحضارة في العصور القديمة ، وكذلك نظرة إجمالية على تاريخ روما ، ومن الوجهة الاجتماعية البحتة نجد في هذا المؤلف عدداً من الأفكار والتحليلات التي تعتبر دعامة قوية للفاهيم القضائية والاجتماعية الحديثة ، فقد عرضت ونوقشت فيه كل الآراء التي أدت دوراً هاماً في حياتنا الاجتماعية فيما بعد ، وكذلك عرضت فكرة القانون الطبيعي ، والحرية الطبيعية للإنسان وممارسة السلطة عن طريق الاكراه .. الخ ، ونلمس فيه كذلك الخطوط العريضة للنزعة الانسانية كما ستحدد فيما بعد .

وتتضح مثالية أوجستان من مدى التناقض والتعارض بين مدينة ، الإنسان وبين « مدينة الله » التي أطلقها على مؤلفه . وقد يعبر بهذين ، الإسمين عن اتجاهين متداخلين كل منهما في الآخر .

فالاتجاه الأول يعنى الخضوع للمادة وعبادة الشهوات والقوة وحب الذات .

والاتجاه الآخر يعنى « التفاني في حب الله لدرجة احتقار الذات ،

أى الإيمان والخضوع ، واحترام العدالة والرغبة فى البذل والتضحية .
وفهم الاعتقاد الدينى بدور مثالى فى دفع الناس نحو بلوغ الكمال .

وتدعو المدينة السماوية إليها مواطنين من جميع الأجناس، وهى تشكل
مجتمعا من الناس من كل لغة وهى لاتلغى شيئا ولا تدمر شيئا من عادات
مجتمعاتها ، وهى تنقل السلام الدنيوى إلى السلام السماوى .

أما من ناحية شكل الدولة فإن أوجستان لايفضل شكلا على شكل
آخر . وهو يوصى بأن من رجاحة العقل السياسى أن تسود العدالة جميع
الناس ، إذ بدون عدالة « لاتعنى كلمة « ملك » سوى قاطع طريق ، ولا
يقصد بمعنى « مملكة » إن دلت على معنى غير معناها الذى وجدت من أجله
إلا نجبا للصوص وقطاع الطرق .

ويعتبر مؤلف أوجستان إلى حد كبير نقطة انتقال بين الحكمة القديمة
والحكمة الجديدة، وتكمن قيمته وروعته فى أنه جمع بين الحضارة القديمة
والحضارة المسيحية، وشرح كيفية الانتقال من الحضارة الأولى إلى الحضارة
الأخرى .

ويعتبر هذا المؤلف آخر المؤلفات الرومانية ، وكان هذا المؤلف
من المؤلفات المفضلة التى قرأها واستوعبها شارلمان ، وقد نهلت منه
جميع المذاهب التى أضاءت له طريقه ، وهدته إلى حسن السياسة التى رسمت
مستقبل أوروبا السياسى .

وهكذا نجد فى مؤلفات علماء الجغرافيا ومحبي الأسفار وعلى الأخص
منذ عصر هيرودوت Hérodote .. مقارنات كثيرة بين الحضارة اليونانية
وبين حضارة الشعوب الشرقية والافريقية . واستمر هذا الاتجاه فى
العصور الوسطى أولا عن طريق علماء الجغرافيا العرب مثل الإدريسي

(١٠٩٩ - نحو ١١٦٤)^١ وابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٨) وبعض الرحالة مثل بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٣) الذى يعتبر مؤلف أول بحث فى وصف بلاد الشرق الأقصى ، ثم أتت بعد ذلك القصص الاسبانية عن كشف العالم الجديد ، وأدب الرحلات وبقية الفتوح الأخرى التى بدأت منذ القرن السابع عشر .

ومن الصعب علينا أن نلصق فى مؤلفات القرون الوسطى صورة واضحة عن علم الاجتماع ، ولانملك الآن مؤلفات عصرية تتحدث لنا بطريقة منظمة عن تشكيلات المجتمعات فى القرون الوسطى .

وكان هناك فى ذلك العصر اتجاهان هامان :

الاتجاه الأول : ينصب على الفارق بين - كما دعا إليه القديس أوجستان - بين العالم الزمنى والعالم الروحى . ويضاف إلى ذلك التناوؤم الفطبع الذى نتج عن المسكنة الكبيرة التى جعلتها مجتمعات القرون الوسطى للإيمان « بالخطيئة الأصلية » ، وعقاب « النار » فى الدار الآخرة .

الاتجاه الآخر : كانت مجتمعات ذلك العصر تتأرجح تبعاً للحوادث والظروف بين الآراء الحرة للقديس أوجستان وبين الالتزامات الارستقراطية التى كان يتطلبها نظامها الاقطاعى ، وقد حرمت المسيحية على رجال هذه الطبقة أن يفرضوا التزاماتهم : مثال ذلك عدم زواج القساوسة لتلافى تشكيل طائفة كنسية على غرار طائفة الهند أو طائفة مصر القديمة .

ولننصف إلى ذلك ظاهرة أخرى فى غاية الأهمية انتشرت فى مجتمعات

القرون الوسطى، ألا وهي النزعة الوجدانية. وهذه الظاهرة نفسها انتشرت في المجتمعات البوذية كذلك.

وهكذا كانت معظم الأبنية التي تقام لعدة قرون في العالم الغربي مقصورة على الأديرة وكهوف التعبد.

ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦)

ولد ابن خلدون في تونس من أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس، ولما شب وترعرع عكف على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة، وبدأ حياته بدراسة الحديث والفقه المالكي وعلوم اللغة والشعر، ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد في أثناء حياته العملية.

ولم يكتب مقدمة مؤلفه التاريخي إلا وهو في نحو الخامسة والأربعين من عمره بعد أن نضجت أبحاثه ومطالعاته، وبعد أن خاض معترك السياسة، وبعد أن تقلب في خدمة القصور والدول المغربية دارساً شئونها ونظمها، ومتقصياً سيرتها وأخبارها، وشاهداً لأحوالها وتقاليدها في الحياة العامة والخاصة^(١).

وكان لا بد أن تنتظر قرابة عشرة قرون من الزمان لترى بعث التفكير الاجتماعي الذي توقف منذ وفاة القديس أوجستان، فابن خلدون كان عبقرية لامعة في الفكر الشرقي، وهو يعتبر تليذا لأستاذه ابن رشد في الفلسفة. وقد شهد الحوادث التي أدت إلى اختفاء الدول الأخيرة الإسلامية في إسبانيا. ومولد الفوضى التي تفشت في شمالي إفريقيا. وى

(١) للمترجم

الشرق وصول جيوش التتار بقيادة تيمورلنك بلاد الشام ، وعلى ذلك أثارت الحوادث التي ارتبطت بسقوط كل هذه المنظمات السياسية تفكيره وانتباهه ، ولا يخفى علينا المؤلفه « المقدمة » من أهمية كبيرة من الناحية التاريخية والاجتماعية .

وقد اتخذ ابن خلدون من التاريخ علماً يدرس ، لارواية تدون فقط ، وقد كتب التاريخ على ضوء طريقة جديدة من الشرح والتحليل ، فانتهى به التأمل والدرس إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية .

بيد أن ابن خلدون ينظر إلى موضوعه من أفق شاسع جداً ، ويجعل من المجتمع الإنساني كله وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لتأمله ، ويحاول أن يتبع هذا المجتمع بالدرس والتحليل في جميع أطواره منذ نشأته وبدايته ، وتردده بين الضعف والقوة والفتنة والشيخوخة والنهوض والسقوط . ويستقصى من خلال ذلك أحوال هذا المجتمع وعناصر تكوينه وتنظيمه .. من الفرد والجماعة إلى السلطان والدولة وما تقتضيه سلامة هذا المجتمع وما يؤذن بفساده وانحلاله .

وقد أعطى ابن خلدون التاريخ تعريفاً اجتماعياً حيث يقول :

« يهدف التاريخ إلى إفهامنا الحالة الاجتماعية للإنسان ، أغنى الحضارة ، ويهدف كذلك إلى أن يعلمنا الظواهر التي ترتبط بهذه الحضارة وإلى معرفة الحياة البدائية وتهذيب الأخلاق وروح الأسرة والقبيلة ، وتباعد وجهات النظر في أن سمو شعوب على شعوب أخرى يؤدي إلى نشأة إمبراطوريات وأسر حاكمة ، وفوارق الطبقات والمصالح التي يكرس لها الناس أعمالهم ومجهوداتهم ، مثل المهن المريحة ، والصناعات التي تعين على

الكسب ، والعلوم والفنون ، وأخيرا جميع التغييرات التي تحدثها طبيعة الأشياء في سلوك المجتمع .

ويعتبر تفكير ابن خلدون تفكيراً متميماً إلى تفكير القرون الوسطى بالنسبة إلى استسلامه للتشاؤم الذي عرف أنه من طبيعته المتغلبة عليه ، وهو يمثل تطور العالم الإسلامي وقتذاك ، وعندما أشرقت شمس الحضارة في أوروبا ، غربت شمس حضارة العرب تحت وقع ضربات الغزو المتلاحقة .

وابن خلدون لم يهتم بدراسة فكرة وجود سلطة شرعية وتنظيم تقليدي للمجتمع ، ولكنه أخذ على عاتقه دراسة أصول السلطات السياسية ومدة بقائها بطريقة موضوعية ، وتشكيل الدول وانحلالها بعد استبعاد كل فكرة مبنية على قاعدة أو مبدأ . وكانت المشكلة بالنسبة له وصف ظاهرة دورية مستقلة عن الإرادة الإنسانية وتحديد أسباب هذا التعاقب المنظم لهذه الظواهر الدورية .

والنظرية التي أوردتها تمثل بعض التشابه مع نظرية الظواهر الدورية التي وضعتها أفلاطون ، ومن وجهة نظر ابن خلدون فإن الاختلاف السيكولوجي بين الأجيال المتعاقبة هي التي تفسر تطور الأسر الملكية الحاكمة والاستقرائية الحاكمة . ويقول ابن خلدون : إن الحياة الاجتماعية ما هي إلا ظاهرة طبيعية ، وإن دعائم الحياة تنبثق خاصة من البيئة الجغرافية وتتأثر تأثراً كبيراً بنوع المناخ السائد ، ويؤكد أن الظواهر الاجتماعية أكثر ثباتاً من الظواهر السياسية التي هي في واقعها ظواهر عرضية .

والإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى يحتاج إلى سلطة بدونها لا بد أن تسود الاضطرابات والفوضى؛ لأن الغرائز الشريرة تكمن فيه . أما من جهة السلطة فانها لا تقوم إلا على القوة ، وهذه القوة تتعلق بالجماعات التى تكتسب السلطة بفضل شجاعتها وتماسكها وتضامنها ، وهذه الصفات التى تخلق الاستعداد لأخذ السلطة ترجع أصولها إلى الحياة البدوية . ولكن ليس من نوع هؤلاء إلا القلة من البدو أو أنصاف البدو مثل الجرمانيين والمغول والتتار والنورمانديين الذين قاموا بكثير من الغزو فى أسرع وقت وعلى أوسع نطاق .

وبعد ابن خلدون بزمان ليس بالقصير ، توقف هذا الأسلوب من الغزوات والتسلط وانعكست القاعدة بعد أن ساد الحروب استخدام الأسلحة النارية .

ولكن لأسباب سيكولوجية ، لم يعد استمرار التسلط لأسرة حاكمة ، أو لآلئ حزب ، أو لآلية جماعة من الحاكين أكثر من ثلاثة أجيال أى ما يقرب من مائة عام ، لأن ممارسة التسلط والسلطان وما يكتنفهما من ملذات ويسر فى الحياة ، تتمخض لأصحاب هذه السلطة عن أجيال ضعيفة منهارة الأعصاب وفى غاية الانحلال .

ويرى ابن خلدون أن كل انقلاب سياسى لابد أن يجلب معه البحث عن حل لمشكلة الديون العامة والخاصة ، أعنى نوعاً من التصفية المالية العامة ونحن نعرف جيداً كيف أدت ظاهرة الدين دوراً كبيراً فى الموقف الاقتصادى الداخلى للندن الاغريقية وفى الاضطرابات التى حدثت فى روما والتى أدت إلى سقوط الجمهورية . وهذه الظاهرة دعامة من دعائم تفشى الفتن الداخلية وكثرة الاستبدادات .

وقد ابتدأ دستور سولون Solon بفقرة بوجوب إلغاء الديون ، وقد لاحظ ابن خلدون ظاهرة غريبة ، وهي أن تكرار عدد السكان يحدث في نهاية سقوط الأمبراطوريات مما يسبب كوارث اقتصادية ومتاعب لاحصر لها . وابن خلدون في مؤلفه يحلل عمل الدولة من الناحية الاقتصادية .

ويعد إنتاج ابن خلدون بداية هامة لعلم الاجتماع الوصفي ، وهو يشمل تحليلاً دقيقاً لمنطقة شمال إفريقيا برمتها ، وما زال ما كتبه ابن خلدون في هذا الصدد ينطبق على الهيكل الاجتماعي السائد اليوم في هذه المنطقة من العالم .

الفصل الثاني العصور الحديثة

عصر النهضة :

ونعني بعصر النهضة الحركة الواسعة النطاق التي قامت على تجديد الحضارة الأوروبية الغربية من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر، وبهذه الحركة حل العالم الحديث محل عالم القرون الوسطى . ونذكر أن التطور الذي ارتسم في هذا العصر تناول الحياة المادية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة الفكرية .

والظاهرة الأساسية لهذا العصر هي أن المثقفين فيه والفلاسفة والكتاب والفنانين والعلماء لم تنقطع صلتهم المباشرة بمفكرى اليونان وروما ، ولكن هناك حقيقة لها من النتائج مالا يعد ولا يحصى ؛ ففي القرون الوسطى لم تفترق عقلية المفكرين عن عقلية عامة الشعب ، أعنى أنهما لم يفترقا كلا عن الآخر في المعتقدات والاتجاهات .

ولكن منذ عصر النهضة ، خرجت الحياة الفكرية عن الإطار الشعبي ، وقد لمسنا هذا الانفصال في العقلية في ميدان العلوم والفنون والآداب في أوائل هذا العصر . أما الانفصال في ميدان الفلسفة .. فقد تأخر كثيراً عن بقية الميادين الأخرى ، لأن محاولات انفصال الفلسفة عن عقلية عامة الشعب كانت تتأثر كثيراً بتقاليد العصور الوسطى عن طريق حساسية علماء اللاهوت .

ويبدأ هذا العصر بإعداد فلسفة جديدة عن طريق النقد النزيه لفلسفة

المتشككين : وقد تناول هذا النقد الفلاسفة الإيطاليين مثل لارتان
L'Arétien و بوكاس Boccace وإلى حد ما .. مكيافلي Machiavel
والفلاسفة الفرنسيين مثل رابليه Rabelais ومونتيني Montaigne .

ومن جهة أخرى ، فقد مست يد التغيير « الوسط الاقتصادي »
في نهاية القرون الوسطى ، فنشأت المدن الكبيرة وكانت مركز إشعاع
لمناقشة المشاكل الاجتماعية ، ومنها انبعثت مجتمعات جديدة ذات طابع
خاص بجانب مجتمع الإقطاعيين . وقد نشأت في الجمهوريات الإيطالية
مدن تجارية وثقافية لتنافس المدن الإقطاعية ، وقد دفعت بعض
الاختراعات التكنيكية والاقتصادية إلى سهولة حركة الأموال والأشخاص .
وقد ساعد نظام الكمبيالات في الحد من تهريب الأموال لحساب
الإقطاعيين . ونشأت عن ظهور البنوك وبعض الصناعات المهمة علاقات
معقدة لم يكن لها وجود في مجتمع القرون الوسطى ، وكانت أولى البلدان
في خلق هاتين الظاهرتين إيطاليا وهولندا وبلجيكا .

والجدل الذي أثير حول حركة « الإصلاح » دفع المفكرين أن
يتعمقوا دراسة كل التراث الديني والفلسفي ليبحثوا فيه عن حجج وبراهين
تعينهم على الإيمان وعلى الاعتقاد فيما ورثوه عن العصور الوسطى .

وبمناسبة المناقشات التي أثيرت حول الانقسامات الدينية بين الشعوب
وبين الملوك وبين طبقات النبلاء والملوك ، يدخل عنصر آخر في المناقشات
هو « المشاكل السياسية » أو بتعبير أدق مشكلة السياسة . وقد وضعت على
بساط البحث والتحليل بين المفكرين أسئلة عن طبيعة السلطة السياسية
وشرعيتها وحدودها والتسلسل الاجتماعي وما يطرأ عليه من تغييرات .

ولكن عصر الحضارة لم يقتصر على الأخذ بمفاهيم الإغريق في كل هذه المشكلات السياسية والاجتماعية . « فاجتماعية » الإغريق ثابتة يسودها التشاؤم . أما المسيحيون الأوائل فقد كانوا متفائلين لاعتقادهم إمكانية تغيير الناس من وجهة النظر الأخلاقية ، ومن جهة أخرى فإن الاعتقاد في « الخطيئة الأصلية » وتسلب فكرة (الإثم) والعذاب الأبدى في انتظار نهاية سعيدة ، ضاعفا من تشاؤم مجتمع القرون الوسطى .

وفي هذا العصر اتخذت جميع الأبحاث من المشكلات الاجتماعية طابع التفاؤل ، هذا الطابع الذي لم تعرفه قط ولم تتذوقه قط مجتمعات العصور القديمة والوسطى . وقد تميز هذا العصر أولاً بالاعتقاد في التقدم ، وخاصة في بداية القرن السابع عشر ؛ فقد أحس الناس بأنهم أكثر رقياً وعلواً عما سبقهم من أجيال . وقد رأى هذا الرأي كل من ديكارت وفيسكوولوك ومنتسكيو وفولتير وكوندورسيه ، هؤلاء الذين لم يشكروا أن من سبقوهم من أجدادهم الفلاسفة العظام ، تبوءوا هم كذلك مكاناً مرموقاً في ميدان علم الأخلاق ، ولا ننسى موقف روسو وتلاميذه من مهاجمة عقيدة « الخطيئة الأصلية » ، ومن دعوته إلى الرجوع إلى الصفاء أو الطهارة البدائية .

ويلزمنا أن ننتظر حتى القرن الثامن عشر لنرى كيف تبلورت كل هذه الاتجاهات في العصور السابقة إلى علم اجتماعي موضوعي ؛ ولكن في مستهل القرن السادس عشر ظهر اتجاهان في هذا الميدان :

الأول : اتجاه تجريبي لميكافيللي وعلباء الاقتصاد مثل بودان Bodin

ومونتسكرستين Montchrastien وبوتيرو Botero .

الآخر : اتجاه مثالى يتمشى مع التقليد الأفلاطونى.. أى يواجه حقيقة المدن المثالية ذات التنظيم الخيالى « كاتيويا توماس مورس مثلا ، بمدينة الشمس لكامبانىلا .

ميكافيللى وهوبز (١٤٦٩ - ١٥٢٧)

كان مما يخفف من تحكم القوى فى الحياة السياسية فى القرون الوسطى أربعة عوامل :

١ - روح الفروسية التى كانت نتاج المعتقدات الدينية فى العالم المسيحى كما فى العالم الإسلامى على حد سواء ، ومن حقيقة أرستقراطية التنظيم العسكرى .

٢ - تشييد القصور الضخمة التى كانت تستخدم للدفاع .

٣ - الاستقرار المكتسب عن طريق القانون السياسى الإقطاعى والاعتراف بشرعيته .

٤ - المعتقدات الدينية .

وقد حدد من هذه القوى بعض العوامل الأخرى وأثارت نوعا جديداً من التفكير فى نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، ومن تلك العوامل : ضعف المعتقدات الدينية فى النفوس والانقلابات التى حدثت فى أواخر القرون الوسطى مثل غزوات المغول والتتار والأتراك وسقوط بيزنطة فى الشرق ، أما فى الغرب فالانهيار المطرد للنظام الإقطاعى القديم وتدمير معظم المدن الإغريقية .

ولد نيكولو ميكافيللى فى مدينة فلورنس ، وبعد أن شب وتزعرع اشتغل سكرتيراً للسياسة الخارجية فى حكومة موطنه الأصلى ، وفى هذا المنصب قام بعدة مهام سياسية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا . ولما تبوأ آل مديتشى الحكم للمرة الثانية فى فلورنس عام ١٥١٢ قبض عليه بتهمة التآمر ، وتعرض لعذاب شديد وهو فى السجن ، ثم أفرج عنه بواسطة البابا ليون العاشر ، وبعد خروجه من السجن اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه « الأمير » .

وتختلف دراسة ميكافيللى عن ابن خلدون للتاريخ وللظواهر الاجتماعية ، فهو يركز دراسته على الدولة فقط أو على أنواع معينة من الدول القديمة ، وخاصة تاريخ إيطاليا فى عصره ، ثم يحلل شخصية رئيس الدولة وما يتصف به من صفات حسنة أو سيئة . ويمتاز أسلوب ميكافيللى بسلامة المنطق ، ودقة العرض والتحليل وصفاء الأسلوب .

إذن فيكافيللى يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القديم وبالأخص من حوادث العصر الذى عاشه ، فهى حوادث شهدا بنفسه ، وخبرها ثم بنى عليها أحكاماً وقواعد عامة .

وهو يدعو فى فلسفة السياسة إلى النفاق والشح والضعف والقسوة والإرهاب والغدر وعدم الإخلاص وإهدار الصداقة والأمانة والدين ، مما ينافى المثل الفاضلة وتشتمر منه الاخلاق الإنسانية . كل ذلك طاملاً أنه يرضى الرغبة فى التسلط والشهوة الملحة فى السيطرة على الحكم ، فهى لا تتنافى مع الخلق والمثل العليا ، ومن ثم كان رئيس الدولة الأمثل فى نظره من اتصف بهذه الصفات .

وبالرغم من طابع هذه الفلسفة السوداء فإنه يصوغ فلسفته وآراءه في كثير من القوة والبراعة وبعد النظر . وهذه النظريات والمبادئ مازالت مسيطرة كل السيطرة على عقول بعض الساسة في القرن العشرين . ومع الأسف فإنها تظفر بالنجاح في بعض الميادين ، وقد عرفت باسم « السياسة الميكافيلية » (١)

وتبين حالة كل من ميكافيللي وهوبز أنه عندما تضعف المعتقدات في المبادئ ، الأخلاقية والنشربية التي هي أسس كل تنظيم سياسي ، ينتج عن ذلك فراغ كبير في ميدان الآراء . وإذا ما اختلف مقياس صواب القانون ، نرى تغلب فكرة القوة . وتقوم حياة المجتمعات عند ميكافيللي على ممارسة القوة ، وتتلخص سيكولوجية مثل هذه المجتمعات في الجملة المشهورة التي نطق بها ميكافيللي « عند الناس ميل للشر أكثر من الخير »

ولكن فلسفة ميكافيللي لم تقتصر على مثل هذه الاعترافات ، بل انه حاول ، أن يستخلص من التجربة التاريخية علما سياسياً .. أو بالأحرى فناً قائماً على تحليل دقيق للقوى والمصالح المتنافرة التي تتقابل معاً ثم يصطدم بعضها ببعض داخل الدولة . وهو يشرح ويعرض التاريخ الروماني على هذه الصورة . وتحتل المنظمات السياسية الرومانية مكانة عظيمة ، لأنها وصلت إلى الجمع بين ثلاثة نظم مختلفة : ملكية ، وارشتراطية ، وديموقراطية .

والأهمية التي يتصف بها هذا المؤرخ الفلورنسي هي أنه أعطى فلسفة التاريخ « والسياسة الاجتماعية » وجوداً مستقلاً .

(١) للترجم

ولد في «لاهاي» La Haye في إقليم تورين وتلقى تعليمه في مدرسة الجزويت ثم درس القانون في باريس ، ثم بدأ سلسلة من الرحلات في ألمانيا وهولندا وسويسرا وإيطاليا واشترك في حرب الثلاثين . وقد عرفته هذه الأسفار « بعالم الناس » ، والحق أنه كان محيطاً بكل ما كان في مقدور الإنسان أن يحيط به في عصر كانت فلسفته منهجاً للتفكير الواضح ، ومن ثم التفكير المفيد في العالم من أجل التوصل إلى السيطرة عليه والحصول على قدر أكبر من الرفاهية للبشر^(١) .

والطريقة الديكارتية التي نفذت عليها عقول الفلاسفة الذين أتوا من بعده ، وأحدثت دويًا في عالم التفكير القائم على العقل ، لم تهمل بتاتا دراسة العلوم الاجتماعية والمذاهب السياسية ، ولم يكن يريد أن يتعرض لمثل هذه الأمور ، انظر حيث يقول :

« قررت ألا أبحث عن أى علم . اللهم إلا معرفة نفسى أو معرفة كتاب العالم الكبير ، وقضيت شبابى في السفر وزيارة القصور والجيوش والتعامل مع رجال من مختلف الاستعدادات والمراتب وجميع التجارب المختلفة وتجربة نفسى في مختلف الأوضاع » .

ومع ذلك ، نجد في مؤلفات ديكارت بعض وجهات النظر التي تشكل آراء واضحة وأفكاراً خصبة في مادة الاجتماع ، وهو يؤكد أن كل تقدم اجتماعى لابد أن يسبقه تقدم في الفن الطبى ، « لأن الروح تعتمد بقوة على المزاج وعلى مدى استعداد أعضاء الجسم » . وإذا كان من الممكن

أن نجد بعض الوسائل لنجعل الناس أكثر حكمة واتزاناً فإننى أعتقد أنه يمكن أن نجدها كذلك فى الطب .

سبينوزا Spinoza (١٦٣٢ - ١٦٧٧)

ويمثل سبينوزا نقطة انطلاق فى عالم الفكر ويصور ثورة كاملة على عقلية العصور الوسطى ، فهو يمثل مرحلة جديدة من التاريخ البشرى فى طريقها إلى الظهور ، مرحلة كشفت عن آفاق جديدة كما حملت فئات اجتماعية جديدة إلى عالم النور . وقد ذهب فى آرائه الفلسفية أبعد مما ذهب فيها ديكرت وخاصة فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية .

وهو يقول :

« إن الناس يعيشون فى الأصل تحت سلطان العاطفة وحقوقهم لا تعادل إلا قوتهم فى صراع دائم . »

وقد عالج بأسلوب جديد المشكلة الكلاسيكية فى فلسفة القرون الوسطى وهى التمييز بين الأفراد : كيف يمكن أى فرد أن يحافظ على حقيقة وجوده فى حين أنه جزء من المجتمع ؟ .

وهو يرى أن هذه المشكلة يمكن حلها بضرورة التعاون بين أفراد المجتمع بعضهم وبعض

ويرى أن الإنسان لا يستطيع عن طريق مساعدته الخاصة أن يصل إلى القوة وإلى حرية الفكر على وجه أكمل . ويستحيل الحصول على المعرفة العلمية الحقيقية وكذلك الحياة المادية إلا بالاتحاد القوى . وكلما حصل الفرد على قسط أكبر من الحرية ومن القوى الثقافية .. كلما قل الصراع بين الأفراد فى المجتمع ، وهذا يؤدى إلى دفع هؤلاء إلى البحث عن كل ما يفيدهم ويهينهم كجموعة .

ويشور سينوزا ضد مبادئ الأخلاق في القرون الوسطى التي كانت تدعو إلى التشبث في الحياة وإلى التبعيد والتكفير عن الآثام .

وهو يقول في هذا الصدد : إن اللذة أمر حسن في ذاته ، والألم أمر سيئ في ذاته كذلك ، ولهذا فإن الحمق والخوف والاحتقار والتوبة والخضوع تعد أموراً سيئة وتكمن الحكمة الحقيقية في تأمل الحياة لا في تأمل الموت .

إن الطبيعة الإنسانية لا تختلف في إنسان عن آخر ، وعلى ذلك فليس هناك داع إلى الخوف من الناس ، والنتيجة ضرورة وجود احتياجات أمنٍ أكثر ضد هؤلاء الذين يحكمون تجاه الذين يُحكمون .

ويقول سينوزا : إن المجتمع الذي يشكل عن طريق تعارن الأفراد وتضامنهم هو المجتمع الذي يحافظ على خصائصه الطبيعية ، أعني اتجاهاته الفطرية ، . إذن فالمجتمع عبارة عن وحدة فيزيقية خاضعة لقوانين جوهرية في جميع أجزائها . وبمجموعة هذه القوانين التي لا يقوى المجتمع على تغييرها إلى أي شيء والتي عليها يرتكز المجتمع بثقله تسمى القانون الطبيعي ، ومن وجهة أخرى فإن المجتمع عبارة عن جهاز من القوى ، ولا يعتبر مجتمعا ذا قوة وذا حقيقة واقعة إلا إذا منحه الأفراد هذه القوة وتلك الحقيقة في جميع الأوقات .

« والمجتمع الذي يقوم فيه السلام على جمود أفرادهم وسكونهم التام وعدم الحركة — هؤلاء الأفراد الذين يتركون أنفسهم يغدون ويروحون كقطعان ، ومن ثم لا يمارسون إلا العبودية — لا يُعدُّ مجتمعا بأية حال ، بل يعتبر وحدة لا حياة فيها .

وعلى ذلك يرى سينوزا أن الاستقلال الفردي والوحدة العضوية

للدولة يعتمد بعضها على بعض اعتماداً مباشراً ، فالفرد الاجتماعى يستطيع أن يتعايش مع أفراد آخرين ليشكلوا عن طريق مشاركة الوجدان بينهم فرداً جديداً أكثر راحة . . وهكذا إلى ما لا نهاية .

وفى هذا العصر تشكلت مجموعة من المذاهب والنظريات التشريعية التى تعالج القانون الطبيعى للانسان والقانون الدولى .

لوك Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ويونج Young

ولد فى ورنجتون وهو فيلسوف انجليزى ، اشتهر بأنه من رواد الفلسفة التجريبية . والفلسفة التجريبية هدفها تطبيق العقل على عدد من الأفكار والأنظمة التى كانت تساند الامتيازات . وكانت فلسفة لوك تنصب على مهاجمة التقاليد والحكم التعسفى وسلطة الكنيسة . وكانت هذه الفلسفة تعبيراً صادقا عن آمال الطبقة المتوسطة النامية فى انجلترا والى اصطدمت آراؤها وآمالها فى الحياة بالأسرة المالكة والمجتمع الأرستقراطى وبسلطة رجال الدين . وكان تصارع كل هذه الطبقات من أجل الحصول على قدر من الحريات السياسية والاقتصادية . وكل آرائه التى دوتها هنا وهناك جمعها فى كتاب أطلق عليه اسم « محاولة فى المفهومية الإنسانية » .

ودعوة لوك إلى تنظيم الكنيسة والدولة طبقاً للبداىء التى أثبتت التجارب العلمية أنها تؤدى إلى سعادة المجتمع ورفاهيته ، إنما كانت ثورة بمعنى الكلمة على الأفكار الموروثة والتقاليد المرعية فى المجتمع الانجليزى .

وقد انتشرت أفكار لوك فى بقية بلاد أوروبا بوجه عام وخاصة فى فرنسا حيث نقلها عنه الفيلسوف فولتير وآمن بها كثير من فلاسفة الغرب فى ذلك العصر ، وأطلقوا عليها اسم فلسفة التنوير ، وكانت بمثابة مقدمة — مع مبادئ أخرى مجتمعة — للثورة الفرنسية .

وكان لوك يعتقد أن هناك نظاما طبيعيا للمجتمع لا يحد عنه ، نظاما يقبله العقل ولا ينقضه الواقع الذى نعيش فيه . وهناك اتفاق طبيعى بين أفراد المجتمع للمحافظة على حقوقهم وحماية ممتلكاتهم . ومن فوق هذا النظام هناك نظام مغاير للطبيعة ، ومناف للعقل : ألا وهو نظام الامتيازات والانظمة الطبقيّة . ولوكان يهاجم بشدة بعض المساوى التى يلبسها فى مجتمعه الإنجليزى ، ومنها الاغتصابات التى تقرم أساساً على أفكار قبلية وهو بذلك يندد الافكار الموروثة التى لاتساير العقل والواقع الذى يعيشه والمبادئ القبلية التى عاشها وشهد مساوئها فى المجتمع الإنجليزى .

ومن أهم الأفكار التى نادى بها لوكان تلك الفكرة التى تقول : إنه عندما تعتدى حكومة ما على حقوق الإنسان الطبيعية أو تفشل فى احترامها والمحافظة عليها ، تصبح الثورة مشروعة من الناحيتين الطبيعية والعقلية . ومن ثم كان لفلسفة التنوير — التى التصقت باسم لوكان — تأثير كبير على الفلاسفة الأحرار الذين نقلوا المجتمع من ظلمات العصور الوسطى إلى أنوار الحقيقة . وهذه الفلسفة تنادى إلى جانب ذلك بأن الإنسان طيب بطبيعته وأنه نتاج البيئة إلى حد بعيد أو نتاجها كلية ، وتنادى كذلك بوجود ممارسة الإنسان لكل ما هو إنسانى حقاً .. بحيث يتعود ممارسة ذاته ككائن بشرى . وإذا كانت الظروف هى التى تصوغ الإنسان فمن الواجب أن تصاغ هذه الظروف بطريقة إنسانية ، وإذا كان الإنسان اجتماعياً بطبيعته فإنه لا ينمى طبيعته الحقيقية إلا فى المجتمع . ومن ثم لاتقاس مدى قوة طبيعة الفرد فى المجتمع ، إلا بما للمجتمع من قوة ، وإذا كانت المصلحة الشخصية المستتيرة مبدءاً كل نظام أخلاقى ، فيترتب على ذلك أنه يجب أن نعمل على التقاء مصالح الإنسان الخاصة بالمصالح البشرية جميعاً . وبذلك

كان لوك يؤمن بأن المبادئ البسيطة للحياة الاجتماعية التي تضمن للناس حريتهم وملكيّتهم مبادئ عقلية وطبيعية معاً^(١) .

لقد بين كل من « لوك » و« يونج » نظريّاتهما عن توارّد الخواطر .. الشروط السيكولوجية للتكامل الإنساني . وقد قدما عدداً من المبادئ كانت الأساس لماسمي فيما بعد « بفلسفة الأنوار » .

وقد حاول أحد الكتاب الانجليز وهو « ماندفيل » - في مؤلف أحدث عاصفة من النقد عند ظهوره ونعني به « أقاصيص النحل » - أن يبين أن العيوب التي ينسبها رجال الأخلاق كالشره . والنهم والكبرياء والخيلاء وغير ذلك من العيوب التي سمحت بتقدم المدنية والفنون .

أما بالنسبة « للفيزيوقراطيين » Phsiocrates فهم يؤمنون بوجود عدد معين من القوانين الطبيعية التي تحكم حياة المجتمعات .. على الأقل حياتها المادية . وتؤمن المدرسة « الفيزيوقراطية » التي أسسها كيسنای Quesnay طبيب مدام دي بومبادور .. بأن هذه القوانين ضرورية ودائمة تماماً كالوظائف العضوية للجسم الإنساني . وهذه القوانين تتحقق بنفسها ، أي أن أي تدخل يمرقها ويشلها . وقد يكون « الفيزيوقراطيون » خير من يمثلون عقلية القرن الثامن عشر ، فهم يعتبرون التنظيم الطبيعي هو التنظيم الأمثل ، ويعتقدون كذلك أن التقدم الاقتصادي وتطور المدنية يُعدّان من الأمور الطبيعية التلقائية ، وأن أي تدخل يوقف هذا التقدم ويعرقله .

(١) للمترجم

آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ - ١٧٩٠)

ولد في كير كالدي في اسكتلندا ، ويعتبر من أوائل الذين عالجوا المشاكل الفلسفية والاقتصادية . ومن وجهة نظره أن الاقتصاد والفلسفة توأمان لا يفترق كل منهما عن الآخر وهو مؤلف كتاب « أبحاث عن الطبيعة وأسباب ثروة الشعوب » ،

وهو صاحب نظرية أن العمل سبب الثروة ، وأن القيمة تقوم على العرض والطلب ، وأن التجارة يجب أن تحرر من كل تحريم ومن كل تقييد . (١)

ويضيف آدم سميث إلى نظريات الفلاسفة الطبيعيين وجهات نظر أخرى فلسفية تشكل منها نظم اجتماعية ذات أهداف أكثر قوة واتساعا . والواقع أن آدم سميث مؤسس المدرسة المتحررة في الاقتصاد بدأ أول مابداً عالمياً نفسانياً وعالمياً في الأخلاق . ونظريته في علم الاجتماع هي نظرية الفلاسفة الطبيعيين في علم الاقتصاد تعني أن هناك قوانين طبيعية لتنظيم المجتمع ، قوانين صادرة عن العناية الإلهية ، وأننا يجب ألا نقف حائلاً بينها وبين استخدامها ، فهي دعامة من دعائم تطور الحضارة .

كوندورسيه Condorcet (١٧٣٤ - ١٧٩٤)

فيلسوف ورياضي فرنسي ، ولد في ريمونت . وقد اشتهر عنه أنه عالج كثيراً من المشاكل السياسية ، ومن أجل هذا قبض عليه وأودع السجن ، وقد حاول الانتحار بتناول السم ثم أنقذ في آخر لحظة .

(١) المترجم

ويقول : إن التقدم عبارة عن تجمع المعارف العلية وتطبيقاتها وهي التي تعين على رفع مستوى مستقبل الإنسانية . وطالما أن الطبيعة تمنح العلم معيناً لا ينضب من الاكتشافات فإن صفة السكّال للجنس البشرى تبلغ والحال هذه حداً لا يمكن وصفه .

وفي كتابه « صورة عن تقدم الفكر الإنساني » ، يصف المراحل التي مرت بها الإنسانية تواً ، ثم يرسم في الوقت نفسه الخطوط العريضة للتطورات المرتقبة ، وهو يقول :

« سيأتي وقت لن تشرق فيه الشمس إلا على عالم من الرجال الأحرار الذين لا يعترفون بسيد سوى عقولهم ، وعندئذ لن يكون هناك طغاة أو عبيد أو كهنة أو أدوات أولئك من الأغنياء والمتافقين إلا في كتب التاريخ وعلى خشبة المسرح » .

كانت Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤)

ولد هذا الفيلسوف الألماني في كوينسبرج ، وهو أول من قام بالدعوة إلى التصالح بين العلم والدين ، وأفكاره في هذا الميدان تعتبر من أعظم الأسس الفكرية التي عبر عنها عقل الإنسان . وكان « كنت » ، يعرف تماماً إفلاس المفاهيم الدينية التقليدية والطابع الاجتماعي والرجمي للدول الألمانية الصغيرة ، ولكنه لم تكن لديه الشجاعة الكافية لقطع صلته بالقديم .

ويقول آدم سميث : إن أعمال الأفراد تؤدي في مجموعها وفي هدفها الأخير إلى خدمة المصلحة العامة للجماعة . و « كنت » ، يشرح هذه الفكرة نفسها بطريقة ميثاقية وينتهي بها إلى النتائج التي انتهى إليها آدم سميث نفسها .

و كنت من وجهة نظره يرى أن نظرية الحكم الحر وتلقائية الفكرة
والأعمال الإنسانية تؤدي إلى الانسجام الاجتماعي ، وكذلك نظرياته
المتنافية بطريقة بطريق غير مباشر تؤدي إلى نتائج ملبوسة في الميدان الاجتماعي .

جان جاك روسو J. J. Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨)

ولد في جنيف وهو ابن لتاجر مجوهرات بروتستانتى ، وقد فقد
والدته عقب ولادته مباشرة ، ولم يقو أبوه على تعليمه تعليماً أكاديمياً ، ولذلك
أمضى فترة من شبابه هامئاً على وجهه لا يعرف له مستقراً ، ولا يدري
أى وجهة يولها ؟ وفى ذات ليلة رجع إلى المدينة متأخراً ، فوجد أبوابها
مغلقة فى وجهه ، فآثر أن يرحل عنها إلى ماشاء الله ... فأخذ يتنقل من
مدينة إلى أخرى حتى انتهى به المطاف إلى باريس . وأمضى بها بعض
الوقت ، ثم رجع إلى مدينة شامبرى فى سويسرا حيث تعبدته سيدة شابة
وأخذت على عاتقها أن تهديه سواء السبيل ، ولكنها فشلت فى تقويمه
وتهذيبه ، وانتهى بها الأمر إلى تركه يفعل بنفسه ما يريد ، ثم اشتغل
سكرتيراً لسفير من السفراء فى فينسيا ، ولكنه اختلف معه فقفل راجعاً
إلى باريس ، وهناك عكف على دراسة الفلسفة والاختلاط بالفلاسفة ،
وحاول كذلك تعلم الموسيقى ، ولكن النجاح لم يواته فى هذا الميدان .

كانت فلسفة « التنوير » التى عاصرها روسو تقوم على قطع كل صلة
بتفكير العصور الوسطى ، وكانت تهدف إلى تنوير العقل والعلم من ظلمات
الماضى وإلى وضع الإنسان فى قلب عالم جديد منظم .

ويعتبر جان جاك روسو أول من دعا إلى البحث عن الوسائل الكفيلة
برفع مستوى حياة الناس ، وعن مبدأ الأخوة ، وقد عرض كل آرائه

سواء الفلسفية منها أو السياسية أو الاجتماعية في كتابه المشهور « العقد الاجتماعي » .

وهو يبدأ كتابه بمجلته المشهورة التي تقول :

« إن الإنسان ولد حراً ، ولكنه مكبل بالأغلال في كل مكان . »

وهو يقول : « إذا افترضنا أن القانون الاجتماعي لا يمكنه أن يأتي من الطبيعة فإن بعض الناس قد يملكون سلطة تجاه الآخرين ، وبذلك قد تأتي هذه السلطة عن طريق حق سابق ، أو عن طريق القوة ، أو عن طريق فقدان الحرية التي هي في الأصل عبودية . والواقع أن أى فرض من هذه الفروض ليس له سند حقيقي » .

ونحن لا نعتقد أن السلطة أصبحت ممنوحة لبعض الناس عن طريق الحق ، فالناس سواسية وأحرار بالطبيعة ، ولا يمكن أن يقارن النظام الاجتماعي بالنظام العائلي . وفي الأصل يتشكل المجتمع من عدد كبير من الأسر المختلفة ، ولكن إذا ما أخذنا في اعتبارنا أن رب الأسرة له سلطة طبيعية على أفراد أسرته فهذا لا يعنى أننا : لماذا لا تكون مثل هذه السلطة تجاه عديد من الأسر مجتمعة وتكون ممارستها عن طريق رب أحد هذه الأسر ؟

وتبعاً للطبيعة لا يظل الابن مرتبطاً وقتاً طويلاً بآبيه ، فهو في حل من الانفصال عن آبيه عندما يشعر بأنه يمكنه الاعتماد على نفسه وتدير حياته بنفسه . وعلى العكس فإن الأسرة إنما هي امتداد للإنسانية ، وليس هناك أناس ولدوا ليطيعوا وآخرون ولدوا ليحكموا .

والسلطة التي تأتي عن طريق القوة من وجهة نظر روسو لا تمنح

صاحبها حقاً من الحقوق، وإذا ما اضطر الإنسان إلى أن يخضع لهذه القوة يوماً ما ، فليس عليه جناح إذا لم يطعها . وينتهى روسو إلى القول بأن الحق الاجتماعى لا يأتى من الطبيعة ، بل إنه قائم على ارتباط بين أفراد المجتمع .. الواحد تجاه الآخر . وإذن .. فالمجتمع فى نظره يرتكز على عقد أو ميثاق ، أى على ارتباط متبادل متفق عليه بين أفراد هذا المجتمع ^(١) .

يقترح روسو نظرية جديدة لتنشئ شرعية السلطة السياسية ، فالسيادة المطلقة إنما هى للشعب الذى لا يمكنه أن يتخلى أو ينزل عنها .

وروسو يستند فى ذلك إلى صفة الحق المطلق الذى لا يسقط أبداً عن الفرد منذ ولادته كإنسان . وليست هناك قوة ولا سلطة تعرف بتقدير شخصية الإنسان واستقلاله الفطرى ، ومن هنا يعتقد روسو أن الإنسان كان خيئراً وحرّاً وسعيداً ، ولكن المجتمع هو الذى جعله خبيثاً ، وعبدًا ، وبائسًا .

ومع ذلك .. فروسو ينقض هذا الرأى من جديد ، ويذكر أنه من الاستحالة أن نرجع إلى الوراء ، بل يجب أن نخضع للمجتمع . إن جميع الناس فى هذا المجتمع يرتبط الواحد منهم بالآخر تمام الارتباط بميثاق ، وهذا الميثاق هو الذى يسوى بين الناس قاطبة فى الحقوق والواجبات ، كما أنه يجب أن يكون هناك عقد بين الشعب وحاكميه الذين اختارهم بمحض إرادته . هذا العقد الذى يدفع الشعب وحاكميه إلى ملاحظة القوانين التى اتفقوا عليها والتى تشكل روابط اتحادهما معاً .

(١) للترجم .

فلسفة التاريخ

ج . ب . فيكو J. B. Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤)

مؤرخ وفيلسوف إيطالي ولد في نابولي . وكتابه «مبادئ علم جديد» هو أحد المؤلفات التي تدل دلالة واضحة على أن «فيكو» من الرواد الأوائل . لفلسفة التاريخ ، وهو يعتبر أن تطور التاريخ يحتمل على ارتداد لدورات من الزمن متشابهة كل التشابه وأنها تتمثل بخط حلزوني . وكل الشعوب من وجهة نظره ملزمة على نمط واحد بأن تمر «بالعصور» التي توالى بعضها وراء البعض الآخر . وهو ضد فلسفة «العقلية» لديكارت ، فهو بدلا من أن يلجأ إلى طريقة التحليل المجردة ، لجأ إلى «المسلات» الملموسة ، التي تأتي عن طريق الدراسة النقدية للتاريخ ، وعلى الأخص التطور المتوازي للغة وللنظم التي يطلق عليها فن دراسة النصوص وتطورها .

وتعتبر فلسفة «فيكو» جديدة في نوعها وغنية بعناصرها ، وهو يدعو إلى سيكولوجية تهدف إلى التدليل على أن «العناية الإلهية» خلقت عواطف ونزوات للإنسان في سبيل خير الحضارة . إنه ينادى ببعض الوسائل الاجتماعية على طريقة علم الاجتماع الحديث . فهو عندما يدرس أو يضع أسساً لمشاكل اجتماعية ، يرجع دوماً إلى الحالة الاجتماعية التي كانت عليها التنظيمات السياسية أو الاجتماعية في العصور القديمة . وهو يستغل في دراسته المؤلفين القدماء ، ولكن لا يأخذ بطرائقهم ولا بشواهدهم بل يعتمد كله على دراسة نصوص تراثهم الأدبي والفكري .

ويعتبر « فيكو » ، أول مبشر بظهور أوجست كونت وقانون « ثلاث الحالات » ، فمن وجهة نظره ، أن كل مجتمع لابد أن يكون قد مر بثلاث مراحل متعاقبة الواحدة بعد الأخرى .

(١) المرحلة الإلهية ، وهى مرحلة الشعراء الدينيين الذين خلقوا الأساطير .

(٢) المرحلة الثانية : مرحلة « الطبيعة الباسلة » التى تغلب عليها الروح الأرستقراطية . وكانت هذه المرحلة عصر أشيل Achille وكثيرين من أشباه الإمبراطور رومولوس Romulus الذين امتلأت بهم الأساطير القديمة وتحدثت عنهم كأبطال ميامين وكأنصاف آلهة .

(٣) المرحلة الثالثة : مرحلة « الطبيعة الإنسانية الذكية » ، وطابع هذه المرحلة طابع المساواة والفكر والعقل والواجب .

ومن وجهة نظر أخرى ، فإن « فيكو » ، يعد رائداً أول لمؤرخى القرن التاسع عشر . ويقرر ميشيليه Michelet أن أستاذه فى التاريخ ومعلمه هو فيكو ، وهذا ما يؤيد الدور الهام الذى ينسبه فيكو إلى « رأى العام » . فالرأى العام من وجهة نظره هو الذى يحكم أخلاق المجتمع والقانون ، وهو يقول :

« يمنح الشعب القوانين الروح التى تطيب له ، ويتحتم .. إن طوعاً أو كرهاً .. على السلطات أو القوى الحاكمة أن تلاحظ هذه القوانين فى الروح التى تطيب للشعب والتى تعلق بها » .

ولم يفت فيكو التحدث عن الوجدان الاجتماعى كما تحدث عنه فلاسفة

القرن الثامن عشر والتاسع عشر الفرنسيون من مونتسكيو إلى روسو ،
إلى سينسر .

وميشليه المؤرخ الفرنسي كان هو الآخر مقتنعاً بالقيام بهذا الدور
الحلاق للشعب ؛ ولذلك نلّس في كتاب ميشليه « تاريخ فرنسا » Histoire
de France مدى التجديد في فلسفة التاريخ ، ففلسفته كانت قائمة على
دراسة المنظمات السياسية والآراء والتحيزات الفكر العام ، وكانت دراسة
مثل هذه القضايا أكثر أهمية في نظر ميشليه من دراسة قوائم أسماء
الملوك والوزراء والتدما والمعارك .

ويمكن أن نرى في فيكو رائداً آخرأ من رواد نظرية الطبقات
الاجتماعية ، وعلى أية حال .. فإنه يعلن أن أهمية هذه النظرية هي معرفة أن
السلوك السياسي للأغلبية العظمى من الأفراد محدود عن طريق موقفها
الاجتماعي . وعند فيكو إدراك سليم وواضح للتناقضات التي تعزى إلى
اختلاف المهنة والمزبنة ومصادر الثروة في داخل شعب واحد . وقد لاحظ
أن هذه التناقضات لم تتوقف قط .. لأنها تركز على التشكيل الأصلي
للجتماع وللبنان السياسي لا على الناس ، وكلما ألغيت مجموعة من هذه
التناقضات ظهر جديد منها .

إذن .. ففيكو يقرر شيئين .. هما :

من جهة .. قدرية التطور .

ومن جهة أخرى .. اتجاه متحرر في ميدان المنظمات السياسية . وله شبه
كبير باتجاه الفلاسفة الطبيعيين (الفيزيوقراطيين) في الميدان الاقتصادي .
ويقول في هذا المقام :

د بما أن المجتمع من صنع واقع غريزي واضح لا لبس فيه ولا غموض فتكون الخلاصة أن الاتجاه الأحسن والأكثر انزاناً وحكمة هو ذلك الاتجاه الذي يترك للمنظمات السياسية أن تخلق من نفسها أحسن الوسائل الممكنة لتطور هذا الدافع الغريزي دون إجبار أو إكراه .

مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥) :

ولد في قلعة (لا برید) قريباً من مدينة « بوردو » وبعد أن أتم دراسته الثانوية درس القانون ، ثم تقلد منصب مستشار قانوني في برلمان مدينة بوردو. ثم اعتلى منصب رئيس محكمة وهو في سن السابعة والعشرين. وفي عام ١٧٢٦ أعنى نفسه من هذه المهمة وآثر الترحال والتنقل من بلد إلى آخر ثلاث سنوات تقريباً زار فيها جزءاً كبيراً من بلاد أوروبا وعلى الأخص إنجلترا التي أقام فيها وقتاً طويلاً ، ثم قفل راجعاً إلى فرنسا حيث أمضى فيها بقية حياته . بين قريته التي كان يشرف فيها على مزارعه بنفسه متأملاً فيها الطبيعة .. وبين المجتمع الباريسي دارساً إياه .

وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » L' Esprit des Rois يعتبر من أعظم مؤلفاته في فلسفة التاريخ . فقد قضى في إعدادة حوالي عشرين سنة . ويجمع هذا المؤلف جوانب كثيرة من السياسة وأنظمة الحكم المختلفة وما تحمل من مساوٍ ومحاسن ، وفيه معالجة صريحة للمجتمع وما يجب أن يكون عليه . فقد رأى أن القوانين تبدو كحقائق ناتجة عن تجربة ، ويضع في حسابه الجنس والعصر والوسط وكل الشروط التي تحدد « الروح » . وفي الوقت نفسه يستخلص من الحالات الخاصة مبادئ عامة . ويصف التشكيلات الهامة للحكومة بصفات خاصة .. فالحكومة

الملكية قائمة على الشرف ، والحكومة الاستبدادية قائمة على الخوف ،
والحكومة الجمهورية قائمة على الفضيلة . وهو يدعو إلى فصل السلطات بعضها
عن بعض : السلطة التشريعية ، والسلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية^(١)
ويعتبر مونتسكيو القانون من المداخل البراقة للوصول إلى ميدان
العلوم الاجتماعية ، فهو يقول :

« إن القوانين تعبر عن العلاقات الضرورية التي تشتق من طبيعة
الأشياء . »

وينطلق مونتسكيو من هذا التعريف محاولاً أن يقيم عدداً معيناً من
العلاقات النابتة بين المنظمات السياسية والتشريعية للشعوب وأحوال
معيشتهم وخاصة مناخهم . وعلى ذلك فالأخلاق من وجهة نظر مونتسكيو
انعكاس للقوى الدافعة المتأثرة بالمناخ ، ولذلك يقول أيضاً :

« إن الديانات في البلاد الحارة لا تتشدد في عقاب خطيئة الجسد ، كما
أن ديانات البلاد الباردة لا تتشدد في عقاب الإدمان على الخمر . »

ويرى مونتسكيو أن التنظيمات الاجتماعية قائمة على علاقات ثابتة
بين طبيعة الإنسان والبيئة ، وينتج من هذين العنصرين مجتمعين ما نطلق
عليه « الروح العامة » أي العقلية والرأي .

وعندما يحاول مونتسكيو التحدث عن نظرية السلطة السياسية يربط
الصور الهامة للسلطة السياسية بالمثل الأعلى الاجتماعي السائد ، وهو
لا يبعد في هذا الرأي عن رأي أفلاطون ، وهو يوضح أن أية حكومة في
أية صورة أو شكل يجب عليها أن تتخذ عدداً من المعتقدات دعامة لها ،

(١) للمترجم

وأهم هذه المعتقدات هي التي تتضمن مثلاً أخلاقياً أعلى ، فالحكومة الملكية مثلاً الأعلى الذي يدعمها ويمنحها كيانه هو الإحساس بالشرف ، والحكومة الاستبدادية . . الخوف ، والحكومة الجمهورية . . الفضيلة . وعندما يضعف هذا المثل الأعلى في أى شكل من أشكال الحكومات الثلاث فإنها تنهار وتترك مكانها لحكومة أخرى ذات شكل آخر . فإذا تقدم الإحساس بالشرف في الشكل الأول ، تحولت إلى حكم الأعيان أو إلى حكومة الأثرياء ، وإذا عدم الإحساس بالخوف في الشكل الثاني ، انهار صاحب الحكم الاستبدادي إلى النهاية وتقوض نظامه من أساسه . وإذا عدم الإحساس بالفضيلة في الشكل الثالث ، يصبح الجمهوريون حكاماً فوضويين ومستبدين .

وتهدف دعوته في فصل السلطات إلى عدم طغيان الواحدة على الأخرى ، ويرى تطبيق هذا الشيء نفسه في المجتمع كما لا تطغى طبقة على طبقة .

الفصل الثالث العصر الحاضر المتشائمون

لقد شهدت أواخر القرن الثامن عشر انتصاراً ساحقاً لآراء وأفكار الفلاسفة الطبيعيين وعلماء الاقتصاد المتحررين ؛ فقد ألغيت تماماً أو اختفت نهائياً النظم التعاونية وتحديد أسعار المنتجات والتنظيمات الاقتصادية المحدودة .

وقد صاحب هذه الفكرة نمو في الثروات وفي الإنتاج لم تعهده الإنسانية من قبل ، ولكن هذه « الديناميكية » في تضخم الثروات وفي غزارة الإنتاج لم تخل من مساو ومضار ؛ فقد عم البؤس والفقر الطبقة العمالية ، وانتشرت البطالة بين صفوف العمال وانخفضت أجورهم ، وذلك يعزى إلى تحرر المذاهب الاقتصادية وانطلاقها من غير قيد أو شرط مما أدى إلى كثير من المنافسات التي لا عنان لها ولا حدود . وكانت الخطورة في ميدان المنافسة تظهر بوجه خاص في محاولة الاستيلاء على الأسواق الخارجية .

وقد استطاع كل من « ريكاردو ، Ricardo (١٧٧٢ - ١٨٢٣) ومالتوس (١٧٧٦ - ١٨٣٤) أن يبينوا بعض جوانب الاقتصاد الحر ، وقد كانا من الأوائل الذين نددوا بالنزعة التفاوضية لرجال الاقتصاد الكلاسيكيين . وكان اعتراضهما الأول هو « بخل الطبيعة » ، فقاموا

الغلة المتناقصة في الميدان الزراعى يبين أن العمل يمكن أن يصبح لاجدوى من ورائه حينما تزداد حدته ، كما أن قانون الدخل الزراعى يبين أن أهم الأرباح هى تلك التى لا يستحقها أصحابها ، أما قانون السكان الذى وضعه « مالتوس » فإنه يبين كيف أن الطبيعة تقاوم ، بطرق عنيفة ، ازدياد معدل الخصب . وعالج « داروين » (١٨٠٩ - ١٨٨٢) موضوع « الاختيار » ونزعة البقاء للأصلح ، وهكذا انتهت الميول التفاؤلية التى سادت المذاهب الفكرية في القرن الثامن عشر عن هؤلاء الكتاب أمام حروب نابوليون الكثيرة .

هيردر Herder (١٧٤٤ - ١٨٠٣)

الناقد الألماني والفيلسوف والواعظ والمعلم ، ولد في « مورونجن » في بروسيا الشرقية لأبوين فقيرين ، ولكنه لم يقتصر في الأثر الذى تركه على أحداث ثورة في الأدب الألماني بكتابه (Sturm und Drang) بل وترك أثراً عميقاً في التفكير الألماني الفلسفى والسياسى وتطور القوميات في أوروبا الشرقية . وقد درس اللاهوت والفلسفة في كينيسبرج من ١٧٦٢ - ١٧٦٤ متكبساً خلال هذه الفترة من التدريس في كلية فريدريك هذه المدينة ، وقد استمع في الجامعة إلى محاضرات أيمانويل كنت ، الذى أخذ عنه شغفه بالجغرافيا والعلوم الإنسانية ، وعقد علاقة صداقة وثيقة مع هامان Haman الذى وجه اهتمامه إلى الشعر والنقد مع تأكيد أهمية العاطفة في الإنتاج الأدبى وفى تقدير مثل هذا الإنتاج ، وقد وجه هامان اهتمام هيردر إلى المحاولات الأدبية البدائية في كتاب « العهد القديم » .

وفي أواخر عام ١٧٦٤ ذهب إلى « ريجا » حيث عمل مساعد أستاذ في مدرسة الكاتدرائية وظل في المدينة إلى عام ١٧٦٩ حيث أصبح معلماً وواعظاً في مكانة مرموقة . وكان أول أعماله الكبيرة هو *Über die nevere deuts the Literature* الذي نشر عام ١٧٦٧ ووضعه في مركز رفيع بين كبار نقاد الأدب ، بيد أن عدم استقراره دفعه إلى ترك ريجا ، كانت فكرته هي السفر للحصول على الخبرة عن العالم ، وعند عودته إلى ريجا ناظراً « لليزيوم » في ريجا وضع إصلاحات تعليمية هامة جديدة ، وقد سافر هيردر إلى « نانت » حيث أخذ يفكر في حياته ويضع مشروعات كبيرة بشأن المستقبل في مجالات التعليم والفلسفة والأدب والدين . واتضح له أن رسالته في الحياة هي دراسة التاريخ البشري بكل مظاهره من بداياته الأولى ليتبين الاتجاه الذي لا بد للمجتمع البشري أن يسير فيه في المستقبل .

وقد زار باريس وفي أثناء عودته إلى ألمانيا تحطمت السفينة التي كان يستقلها ولكنه نجا من الموت . وقد زار دار مشتاوت حيث التقى بالفتاة التي قدر له أن يتزوجها فيما بعد ، كما ذهب إلى ستراسبورج حيث التقى « بحوته Goethe » ، وقد تحدث إليه بآرائه الجريئة عن نشأة الشعر وأطلعه على الأدب الشعبي وغير ذلك من شعر شكسبير والعهد القديم . وبعد ذلك أصبح واعظ البلاط في قصر الكونت « شاد مبرج لبي » في يكبرج ، واستمر في أبحاثه في الحركة الأدبية الجديدة وكتب عدداً من الأعمال الدينية والفلسفية ، وقد تزوج عام ١٧٧٣ ، وفي عام ١٧٧٦ دعى بتأثير نفوذ « جوته » ليصبح مشرفاً وواعظاً في فايمار ، حيث أحبط بالحسد الضغط الذي أثر عليه لحساسيته الشديدة وساءت صحته إلى أن توفي

في فابمار التي كانت فترة حياته فيها قصة تدعو للأسى . بيد أنه تمتع بصداقة
« جوته » ، الوثيقة بين عامي ١٧٨٣ و ١٧٩٣ وإن كانت حدثت فرقة
بينهما في آخر الأمر ، ولا شك أن كلا منهما قد ترك في الآخر
أثراً كبيراً .

وقد وضع هيردر أعظم أعماله في أثناء الفترة التي قضاها في فابمار
ومنها Volkslieder (١٧٧٨ - ١٧٧٩) و آيدن « ١٧٨٤ - ١٧٩١ » ،
التي حاول أن يحقق فيها أحلامه في أثناء رحلته البحرية ، وقد توفي في ١١ من
ديسمبر عام ١٨٠٣ . وهو مؤلف لكتاب جامع شامل لأرائه السياسية
والاجتماعية أطلق عليه اسم « فلسفة تاريخ الإنسانية » ، Philosophie
de l'Histoire de l'Humanité ^(١)

ويؤيد هيردر فكرة أن لكل شعب نوعاً من الروح تفرض على
أفراده طريقة في التفكير وفي الشعور غير قابلة للمشاركة مع أي
شعب آخر .

وبالنسبة للإنسانية ، تكمن قيمة الفرد في صفاته الشخصية ، ومن
وجهة نظر المدرسة « الهيردرية » ، تعتبر القيمة الفردية جزءاً من النمو
العضوي للمجتمع . وفي مدينة ستراسبورج بفرنسا عام ١٧٧٠ شرح
هيردر للشباب « جوته » ، أن الشعر الشعبي والملمحة والحق الطبيعي ما هي
إلا جوهر لكائنات مجردة لكنها مخلوقات حية يتضح فيها من غير وعي
« روح جماعية » ، وتلك هي الروح الشعبية التي عبر عنها هيجل بكلمة
Volksgeist في رسالته للحصول على درجة الدكتوراه في عام ١٧٩٣ .

(١) للمترجم

وقد ترجمت هذه الكلمة إلى معنى القومية في ألمانيا وفي فرنسا . وهم يقارنون القومية بجهاز ضخيم يشكله الناس الذين هم أعضاءه « كأوراق الشجرة » .

ويبدو من هذا التاريخ كيف كان الطابع المشترك لعلوم الاجتماع ذات الاتجاه المتحفظ في مقارنة المجتمعات والدول بأجسام كائنات حية لا تستطيع أن تتطور وتنمو إلا تلقائيا دون أن يكون للإرادة الواعية دور فيها .

وبذلك تتضح النتائج الاجتماعية لمبادئ هيردر ، فهي تعبر عن « اللجوء » إلى « مناهات » الفلاسفة المدرسين ، وهي تغلب الشيء الذي يصعب التعبير عنه وتفسيره ، وفلسفة القدماء فيما يختص بالتحليل والوجدان والعقل ، وبالاختصار إلى الرجوع إلى نظريات ومبادئ العصور القديمة التي كانت تؤمن بالقومية والعنصرية .

وقد انعكس هيردر في دراسة الثقافة القومية الألمانية من بدايتها البربرية ودرس أصل لغتها وحضارتها القديمة إلى تاريخها ونظمها في العصور الوسطى كما درس فنونها الشعبية التقليدية وآثارها ، وكان هدفه من ذلك خلق صورة جديدة للمجتمع الألماني تكون مسئولة عن وحدة نموها القومي الخاص بها .

* * *

وقد انعكس رد الفعل هذا في الميدان الاقتصادي ، وكانت وجهة نظر الفلاسفة الطبيعيين والمنحررين ، إلغاء كل المضايقات الاقتصادية والمهنية التي كانت تثقل كاهل الناس منذ القرون الوسطى ، مثل نظام الاتحادات والعبودية والعمل الإجباري أو الإلزامي . وفي ميدان التبادل التجاري

كانوا يهاجمون تدخل الحكومة في توجيه الاقتصاديات فكانوا يؤيدون التبادل الحر للسلع والنقود .

وكان أول صوت ارتفع ضد وجهات النظر هذه صوت (فشته)
Fichte (١٧٦٢ - ١٨١٤) وهو معروف كفيلسوف أكثر منه شيئاً آخر ، وفي كتابه الذي أطلق عليه الدولة التجارية المقفلة L'Etat Commercial Fermé يتحدث عن النظرية السكاملة للاكتفاء الذاتي بمعنى أنه يجب على أى شعب أن يكفى نفسه بنفسه ، وأن يستهلك منتجاته الخاصة به ، وأن يتجنب الصادرات ، كما أن عليه إزاء ذلك تجنب الواردات سواء بسواء . معللاً ذلك بأن السياح عامل لإفساد لأداب الشعب وأخلاقه ، وأنهم يشكلون منظرأ من مناظر الكسل .

ومن وجهة أخرى فإن التركيب الاجتماعى لأوروبا الموروثة عن القرون الوسطى كان قائماً فيما يختص بالتسلسل على مبادئ معقدة وغالبا متضادة متنافرة . وهذا النظام أثر من آثار أنظمة الطوائف في العصور الرومانية ، ويضاف إلى ذلك انقسام المجتمع إلى ثلاث طبقات : طبقة النبلاء ، وطبقة رجال الدين ، وطبقة أفراد الشعب المتخلفة .

وقد أثار الحملات العنيفة ضد الامتيازات التى كان يتمتع بها النبلاء موجة من الدفاع المضاد في مخططات هذه المذاهب الاجتماعية : ففى فرنسا كانت حجة المدافعين عن امتيازات طبقة النبلاء تنحصر فى أن هذه الامتيازات ناتجة عن حق غزو مارسه أبناء هؤلاء الغزاة الشرعيين تجاه هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم . والغريب فى الأمر أن كثيراً من الكتاب والفلاسفة قاموا بالدعوة لهذه الآراء فى مؤلفاتهم ، ونخص بالذكر الدبلوماسى والكتاب الفرنسى جوبينو (١٨١٦ - ١٨٨٢)

في كتابه المشهور *Essai sur l'ignégalité des Races Humaines* ويعد جوينو من أكبر غلاة نظرية الأجناس وعدم مساواتها في الكفايات إلى المبالغة في القول بأن هناك دماً زنجياً يجرى في عروق جميع أفراد الطبقة الفقيرة في فرنسا. وقد تحمس الألمان إلى حد كبير لآراء جوينو وذهبوا بها مذاهب بعيدة من القومية المتعصبة إلى نظرية الأجناس التي اعتنقها النازيون أيام حكمهم وأدخلوا في روع الشعب أنهم أسى الأجناس .

ومن جهة أخرى كانت هناك فلسفة أخرى في القرن الثامن عشر تدعو إلى الأخذ بآراء الفلاسفة اليعقوبيين الذين كانوا دعاة للفلسفة التفاؤلية في هذا العصر ، والذين كان يعرف عنهم تحمسهم الجنوني لنظام الديموقراطية ووجوب تطبيقه في المجتمع . وكان محتوى هذه الفلسفة التفاؤل المنحصر وإيمان روسو بفضائل الشعب التي هي المصدر الوحيد للسلطة الشرعية . يضاف إلى هذه الآراء الرأي القائل بأن الملوك كان من مصلحتهم الفصل بين الشعوب وعدم جواز اختلاط بعضها ببعض .

ولكن الغزوات النابليونية جرحت الشعور بالقومية وأدمته باحتلالها العسكري المستمر للبلدان وبسلبها لأموال الشعوب المغزوة ، وبمصادرة ما فيها من منتجات وسلع ... إلخ ، وهكذا أسبغت هالة على أفكار هيردر الألمانية التي انحدرت إلى عالم الأدب .

وقد اعتنق الفلاسفة الرومانتيكيون آراء أخرى مضادة لآراء القرن الثامن عشر . إن « القومية » التي ظهرت في بداية القرن التاسع عشر كانت صورة لرد فعل عام شعبي ضد النزعة الدولية لسيادة الطبقات الحاكمة في القرن الثامن عشر وضد الإنسانية نفسها .

جوزيف دى ميستر Joseph de Maistre (١٧٢٣ - ١٨٢١)

ولد فى شميرى Chambéry وبعد أن أتم دراسته العليا اشتغل بالقضاء كأييه من قبل ، ثم هاجر إلى لوزان وأخذ ينتقل فى بعض بلاد إيطاليا . وأخيراً استقر به المقام فى سردينيا . وشغل فيها وظيفة مهمة ثم أرسلته حكومة سردينيا سفيراً لها فى روسيا . ولكن حكومة ذلك الوقت لم يعجبها منه دفاعه عن الجزويت عند طردها إياهم ، فطلبت منه العودة إلى بلاده التى يمثّلها .^(١)

وهو يعتبر من ألمع الكتاب السياسيين ، فقد كتب فى بعض مؤلفاته مدافعا عن الآراء السياسية القديمة ووجوب عدم التخلّى عن ممارستها وهاجم مدرسة روسو وجميع الآراء التى انبثقت عنها . وانتقد الاتجاه الثورى الذى يدعو إلى نبذ التنظيمات القديمة .

وجوزيف دى ميستر يعطى الطريقة التجريبية فى دراسة المجتمعات قيمة كبيرة ، ويدعوه إلى هذه الطريقة يأخذ جانب المعارضة ضد الطريقة العقلية ، ويضيف إلى ذلك أنه « يتحتم حل جميع المشكلات التى تتعلق بطبيعة المجتمعات عن طريق التاريخ » .

أما فيما يخص السلطة العليا فى الدولة ، فإنه تبعاً لمفهوم التجربة التاريخية على حد قول جوزيف دى ميستر ، لا يوجد لها أصل خارق لطبيعة الأشياء ، بل إنها جزء من « البنيان الفطرى للمجتمعات » ، وقد اعتبر جوزيف دى ميستر المثل الوحيد للقضية « الشرعية » ، فى عصر كانت فيه هذه الكلمة لا تدل إلا على الأسر الحاكمة التقليدية . (الأسر المالكه) ولكنه لم يدرك أن أى مذهب سياسى ينصر فى النهاية فى نظرية « شرعية السلطة » .

(١) المترجم

ومع ذلك فإن أفكار جوزيف دى ميستر فى السياسة والمجتمع أفكار معقدة وينحاز فى بعض النقاط إلى آراء الفلاسفة المتحررين ، فهو مثلهم تماما فى الدعوة إلى النشاط التلقائى الذى عن طريقه تتضح وتظهر الرغبات العظيمة والأهداف العليا للأفراد فى المجتمع . وكان يمارض بشدة الحملات الشديدة واللعنات القاسية التى كانت توجه إلى تقدم الحضارة وتطور الفنون والاختراعات من قبل مدرسة روسو التى كانت تنادى بأن الإنسان فى الأصل « خير وسعيد » ، ولكن تقدم العلوم والفنون أفسده إلى حد ما وأفقده كثيراً من سعادته البدائية . والواقع يناقض رأى مدرسة روسو حيث أن التقدم لا يباعد بتاتا بين الإنسان والطبيعة لأن الفن هو « طبيعة الإنسان » ، وهو يدعم رأيه بحجة أخرى حيث يقول :

« إذا خالف النشاط الإنسانى قوانين الطبيعة ، فقد نسى انصاج بيضه ، وقد نلّس فى آرائه فكرة التوازن ، فهو يعتقد أن هناك قوانين تسوس توازن المجتمعات وهذه القوانين لها من المرونة الكافية التى تؤدى إلى إذابة هذه المجتمعات بعضها فى البعض الآخر مع حسن إدارة القائمين ، عليها وتحررهم . »

سان — سيمون Saint—Simon (١٧٦٠ — ١٨٢٥)

فيلسوف فرنسى ولد فى باريس ، وعندما أتم دراسته التحق بالجيش ثم تطوع فى صفوف المحاربين من أجل استقلال أمريكا ، وهناك أتاحت له الفرصة لدراسة التنظيم السياسى للولايات المتحدة ومن ثم اتجه إلى دراسة القضايا الاجتماعية . وعند عودته عين ضابطاً برتبة « كولونيل » فى الجيش الفرنسى ولما يبلغ الثالثة والعشرين من عمره . وفى عام ١٧٨٥

ترك الخدمة وآثر السفر إلى مختلف البلاد للدراسة . (١)

وهو من عائلة أرستقراطية ترجع أصولها مباشرة إلى شرلمان .

وقد اغتبط سان سيمون كثيراً بنجاح الثورة الفرنسية وكان يعتبرها مقدمة لعدة ثورات أخرى لابد أن تتناول الميادين الاقتصادية والاجتماعية في المستقبل ، وبذلك نراه عاصر عهد ما قبل الثورة وما بعد الثورة ، أى أنه عاش فترة انتقال جمعت بين عهدين متناقضين كل التناقض ، ومتنافرين كل التنافر .

وكان كل تفكير سان سيمو منصباً على تحسين مصير الإنسانية ومصير الطبقات الفقيرة عن طريق العلم والصناعة . وفي هذه المناسبة يقول :
« إن المجتمع الإنساني هو الآن في طريق الانتقال ، بل هو يجب أن ينتقل من نظام الحكومة القائمة على حكم الإنسان إلى نظام التسلط على غيره كالمرافق وشئون المجتمع ، .

وهو يعنى بذلك أن نظام الحكومة المعروف قبل الثورة كان نظاماً قائماً على استغلال طبقة لطبقة أخرى ، وعلى تسلط فريق من الناس على الفريق الآخر : فالطبقة الأولى أو الفريق الأول هم الإقطاعيون أو النبلاء ، والفريق الآخر هم الرعايا .

وهو يفترض أنه إذا حدث في ليلة من الليالي أن وباء من الأوبئة الخفيفة قضى دفعة واحدة على حياة طبقة الأمراء والنبلاء والوزراء والقضاة وروؤساء الجيش ، فلاشك أن الشعب الفرنسى سيبكى وسيتأثر كل التأثر لموت هؤلاء جميعاً ، لأنه شعب عاطفى ، ولكن النتيجة أنه لن يحدث انهيار للشعب وفقدان لكيانه كـ مجتمع من زوال هؤلاء . وإذا حدث العكس

(١) المترجم

وقضى الرباء بخاة على حياة العلماء والصناع فلا شك أنه ستتخلف عن هذا كارثة وخسارة كبيرة للمجتمع ، لأن هؤلاء لا يمكن تعويضهم . وهو يريد أن يخرج من هذا الاقتراض بأن ببيان المجتمع قد تغير ، وأنه يجب أن يقوم البنبان الجديد على الصانع والعالم .

وطالما أن سان سيمون هدفه الأول والأخير رفاهية المجتمع الإنساني ورفع مستواه فهو يعتبر أن من المشاكل الأساسية في المجتمع عدم تنظيم الإنتاج الاقتصادي . لذلك يدعو إلى أن يكون الإنتاج الاقتصادي في مصلحة الجميع ، وهو يرى أنه كما نهض بالتقدم ، يجب إلغاء أو تحديد حق الإرث ، ونمنح كل فرد في المجتمع على حسب طاقته ، ولكل طاقة على حسب إنتاجها .

ويدعو سان سيمون جميع المنتجين الزراعيين والتجار والمتعهدين أن يقيموا فيما بينهم جميعه إنتاج ، كما يدعو فئات الصناع أن تأتمر بأمر رؤساء مصانعها دون مناقشة تلافياً لتعويق الإنتاج . ويتحتم أن يمارس هؤلاء السلطة السياسية ، أما العلماء فيمارسون ، السلطة الروحية ، لكي يهذبوا جمهرة الشعب خلقياً وعلبياً ، وبذلك يستطيع المجتمع أن يرث كل هذه الثروات الناتجة عن هذا النظام .

ومن هنا يعتبر سان سيمون من المنشئين الحقيقيين للاشتراكية التي تأخذ بهذا الشكل ، التحكمي ، فهو يدعو إلى مجتمع تحكمه أرسقراطية من الفنيين والممولين والصناع ، أى أنه يعتبر أول من دعا إلى إقامة مجتمع من « الفنيين » Technocrates وأول من أعلن عن الدور العام الذي يؤديه « الإداريون » في إدارة المصانع ومدى تأثيرهم على الإنتاج .

وكان لسان سيمون تلاميذ كثيرون ساروا على هديه ، واقتفوا أثره
واتخذوا من فلسفة آرائه مثلاً عاليا لهم ، فكونوا جمعية دينية تضمهم جميعاً
ولكنها حلت بعد وقت غير قليل بأمر من البوليس ، وانصرف بعض
أتباع سان سيمون إلى مواولة النشاط الاقتصادي فكان الأب (انفانتان)
Enfantin من الرواد الأوائل الذين عملوا على إدخال السكك الحديدية
في فرنسا . كما كان « بيرير Pereire » ، أول من أنشأ بنسكا تجارياً وأقام
أول شركة للملاحة عبر الأطلسى .

فورييه Fourier (١٧٧٢ - ١٨٢٧)

فيلسوف فرنسى ولد في يزانسون ، وهو ابن لتاجر أصواف ، ولم
يتمكن من مواصلة دراسته الجامعية فالتحق ككاتب في متجر ، واستمر
يعمل في هذه الوظيفة متنقلاً من متجر إلى آخر حتى بلغ سن الستين ،
ونرى أن هذه الوظيفة التى شغلها طيلة حياته ، مكنته من الاختلاط بكثير
من الناس على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ونوع سلوكهم فى الحياة . وقد
زود نفسه بجانب ذلك بكثير من القراءات فى كتب التاريخ والفلسفة
لمن سبقوه .

ويمكن اعتبار فورييه من رجال علم النفس الاجتماعيين ، وكان طابع
سيكولوجيته قائماً على تحليل العواطف الانسانية ، وهو فى هذا المقام .
لا يبعد وكونه يوضح لنا ويحلل العواطف التى تثير الإنسان وهو يحاول
أن ينفى علاقة متبادلة بين أحاساس البشر والتنظيمات الاجتماعية .

ويؤكد فورييه أن سعادة الجنس البشرى تنشأ تلقائياً عن المنطحات
المجددة السياسية التى توقفت عن منع الطبيعة البشرية من الانطلاق على

سحبها ، وعن الحيلولة بينها وبين ظهورها على حسب فطرتها ، ولا يتحتم أن تكون الثورة مقصورة فقط على الميادين السياسية والاقتصادية ، بل يجب أن تتناول كذلك الميادين الاجتماعية . ويعنى بهذا عملية تحويل وتغيير القيم . وهو يقترح على منوال أفلاطون نموذجاً من البيان الاجتماعي الذي يبدو له أنه في إمكانه تحقيق توازن على درجة من الكمال ، وحيث تزدهر فيه وتنمو الطبيعة الإنسانية بكل طاقاتها الحيوية .

يقول فورييه : إن التصنيع لا يخلق إلا زيادة في عدد الفقراء ، وإن التجارة تلقى ظلالاً من الاضطراب والفوضى على الميكانيكية الصناعية ، فهو يقترح إلغاء العمل الصناعي ، وإحلال العمل الحر محله ، وينصح بإنشاء جمعية تعاونية إنتاجية Phalanstère حيث يلتقي فيها الإنسان بملاح القرية والقبيلة البدائية ، وحياة القصور والصناعة . وفي هذه الجمعية يتاح لعدد من الناس أن يعيشوا معاً في إطار مناسب ويتحتم ، على جمعية « الفلاناستير » (مذهب فورييه) أن تكفي نفسها بنفسها وأن تنتج كل ما هو ضروري من مختلف الحاجات لأعضائها ، وبذلك يختفي العمل بالأجر طالما أن كل عضو في هذه الجمعية سيصبح منتجاً ومستهلكاً في وقت واحد معاً ، وبذلك يعم السلام جميع الناس قاطبة .

ويعتبر فورييه من بعض جوانبه رائداً من رواد طريقة التحليل النفسي ، وبذلك كانت له بعض الآراء عن كيفية تنظيم العمل في المجتمع ، وهو يركز على الحقيقة القائلة بأن الإنسان عنصر متعدد القيم ، فهو موهوب بالاستعدادات والميول المختلفة في جميع الميادين ، وعلى ذلك يتحتم علينا والحالة هذه ألا ندعه يقوم بأعمال « روتينية » ، تخلف فيه كثيراً من الملل وتدفعه إلى الثورة ، بل يتحتم أن نحول العمل إلى نوع

من الرياضة كما يكون أكثر جاذبية . وبين أن تقسيم العمل الذي لا حدود له ، له نتائج مختلفة ، فقد يكون عاملاً في تبليد الإنسانية أو بلاهتها ، وقد يكون العكس . وعلى ذلك ينبغي أن ينظم العمل بواسطة مجتمعات يتقارب أعضاؤها من الناحية السيكولوجية . والهدف من هذا التنظيم هو جعل العمل أكثر جاذبية وعاملاً من عوامل القضاء على المصادمات والخصومات في المجتمع ، وإذا سادت روح التفاهم المجتمع ، وأصبح سلطانه قوياً ، فإن ذلك قد يتيح توازناً قائماً على مبدأ « كل يكمل الآخر » .

وينقد فورييه كل الطرائق التربوية القائمة على الإكراه والإلزام ، فهو كروسو يحترم بشدة التربية القائمة على التلقائية والميول الفطرية ، وهو أول من دعا المربين إلى الأخذ بطريقة « الكشف المدرسي » في التعليم .

وهو يؤمن بالعناية الإلهية ويرى أن جميع الاتجاهات التي وضعها الله فينا كلها طيبة وخيرة على شرط أن نعرف كيف نأخذ جانب الخير والطيبة دائماً .

وكان فورييه أول المشتغلين بدراسة قضايا المرأة وأثر هذه القضايا على المجتمع ، فهو قد سبق أوجست كونت Auguste Comte في هذا الميدان بتأكيده أن تقدم المجتمع الإنساني وازدهاره لن يأتي إلا عن طريق ثورة جذرية في التقاليد القديمة للمرأة وفي القيود التي تعوقها عن الانطلاق في المشاركة في بناء المجتمع الإنساني على أسس متينة ثابتة .

ولد لأبوين فقيرين ، وتلقن دروسه الأولى في ظروف قاسية ، وفي سن العشرين ساقته الظروف للعمل في مطبعة تعلم في أثناء وجوده بها علم اللاهوت حتى صار عالماً لادوتياً ، وتعلم كذلك العبرية والنحو المقارن وقام بجولات في ربوع فرنسا أكثر من مرة ذاق فيها مرارة الحرمان والبطالة .

وفي عام ١٨٣٨ أخذ يعد مؤلفاته التي قبلت في الأكاديمية الفرنسية ، وأخذ على نفسه عهداً أن يحسن من حال أولئك الذين كان يسميهم « إخوته » وقصد بذلك العمال ، كذلك عني بدراسة الاقتصاد السياسي الذي كان حجر الزاوية في تفكيره مستقبلاً .

وفي عام ١٨٤٠ كان يفكر في تأليف مؤلف ضخم عن مشكلات الملكية التي كانت في نظره « سرقة » ولولا تدخل وزير العدل في الأمر لاسترسل في الكتابة حول هذا الموضوع . وقد صودرت فعلاً كتاباته ولولا دفاعه عن نفسه هذا الدفاع الذي كان قائماً على الجدل والأفكار المجردة والذي صعب على القضاة فهمه .. ما حكم القضاء براءته^(١) .

وفي ١٤ من فبراير عام ١٩٤٨ أعلن عن أفكاره الاجتماعية والسياسية وقد دعا إلى وجوب عدم تكديس رأس المال الذي يؤدي إلى زيادة الفوارق في الثروة وإلى تحطيم الزعرة التي وجدت بين القوة السياسية

والسيطرة الاقتصادية ، وهاتان النزعتان كفيلتان من وجهة نظر برودون بالقضاء التام على العدالة الاجتماعية والإخاء الإنساني . وتبعاً لهذا تصبح الدولة في نظره وسيلة لتغليب طبقة على طبقة أخرى ، أى تحكم أقلية من الأثرياء في الأغلبية من عامة الشعب الفقراء ، ويؤدى هذا النظام إلى حرمان الفرد في المجتمع من حقه الطبيعي في الملكية ، وهى صورة من السرقة المشروعة وهو يقول :

« الملكية هى السرقة بعينها »

وفي فترة من فترات حياته ، اتجه اتجاهاً آخر في مفهوم الملكية ، وذلك أنه يتحتم أن يكون لكل فرد أقل قدر ممكن من الممتلكات ، لكي يتيح له الاحتفاظ باستقلاله الشخصى وكرامته الأخلاقية والاجتماعية . ويدعو إلى إلغاء الصراع الاقتصادى الذى لا ضابط له بين الأفراد والجماعات والنظم الاجتماعية التى تؤدى إلى سيطرة هؤلاء الاقطاعيين على جمهرة الشعب .

ويرى برودون أن إحلال نظام تعاونى تادلى محل المنافسة الاقتصادية التى لا ضابط لها أحسن الوسائل لتنظيم المجتمع ، لأن هذا النظام من طابعه أن يزيد من عدد الكفايات وأن يجعل أفراد المجتمع أحسن أخلاقاً وأكبر تقدماً بما يكشف لهم عن الهدف الحقيقى للحياة المشتركة . ويرى أن هذا النظام يؤدى إلى القضاء على الفقر الاجتماعى والتعطّل .

ويدخل برودون بدوره في زمرة المتفائلين ، ولكنه يختلف تماماً عن « فورييه » . فبينما نجد هذا الأخير يهاجم الأسس الأخلاقية للمجتمع نجد برودون يبسدى احتراماً بالغاً للفضائل « الورجوازية » ، أى الزواج

والأسرة التي تحكمها سلطة الأب . وهو يبقى دينياً في جوهره ويدافع مثل « دى ميستر » عن الحروب ، لأنها في نظره تؤدي دوراً هاماً في تنمية بعض الفضائل الصالحة .

ويمكن أن نضع برودون في مصاف أعداء الثورة . فهو يندد بتركيز السلطات ويفضل نظام اللامركزية الذي يعتمد على وحدات صغيرة تتمتع كل منها بخبرة إدارية واسعة وتباشر على أعضائها سلطة أخلاقية حاسمة . وهو يهاجم مبدأ « الجنسيات » الذي شنت باسمه جميع حروب القرن التاسع عشر ، وتكهن بأن تكوين الإمبراطوريات الكبرى الذي تهدف إليه السياسة الأوروبية لن يحقق السلام ، بل على العكس سيكون سبباً في سلسلة من الحروب والمنازعات .

ويرى برودون كذلك أن قانون تقسيم العمل يضع العمال في علاقة ترابط طبيعي بوصفهم شركاء متعاونين في المسؤولية ، وهذا من شأنه أن يخفي فيما بينهم المنافسة ، وأجرة العمال ليست في الواقع إلا تبادل خدماتهم ، ومساواة وظائف الشركاء تفضي إلى تعادل الطبقات وخصوصاً أنها تسمح للشواذ جسمانياً وعقلياً وخلقياً بالعمل . وأن تنظيم العمل وصف وتحديد وظائف ثم تقسيمها على حسب نظم وأجناس وأنواع ، وطالما أن قانون النسلسل هو معيار القدرات وتعبير آخر مادامت الوظائف الاجتماعية متساوية فيما بينها ، فإن انتاجها يستطيع أن يقيم الأفراد . ولتحديد الأجر يكفي أن نوضح متوسط الوقت الضروري لإنجاز كل إنتاج .

ولكن كارل ماركس عند دراسته لنظرية برودون الاقتصادية ، أعلن أنها تقوم على مفهوم خاطئ : « لآلية التبادل » وأخذ يفند آراءه

الواحد بعد الآخر وانتهى بأن حكم عليه بأنه فيلسوف سطحي ومصلح اجتماعي غبي، وأنه لم يتعمق التعمق الكافي في دراسة تنظيم المجتمعات على مبادئ إذابة الفوارق بين الطبقات . ومع ذلك ورغم الهجمات القاسية التي صيها عليه كارل ماركس ، فإنه يمثل أول محاولة لجمع آرائه السياسية والاجتماعية في مذهب موحد يمكن تطبيقه على كثير من النواحي في المجتمع الإنساني .

* * *

البَابُ الثَّانِي
مَوْلِدُ
عَسَمِ الْأَجْمَعِ الْحَدِيثِ

الفصل الأول النظم الاجتماعية

أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) Auguste Comte

فيلسوف فرنسى ولد فى مدينة موبليه Montpellier وبعد أن أتم دراسته الجامعية ، شغل وظيفة معيد فى مدرسة الهندسة ، ثم عين بعد ذلك سكرتيراً ، وأخيراً تعاون مع الفيلسوف سان سيمون فى اخراج أبحاثه ومؤلفاته إلى حيز الوجود . ويعد من أوائل المؤسسين لعلم الاجتماع الحديث . وفلسفته فى الحياة وفى المجتمع متأثرة بأفكار من سبقوه من فلاسفة القرن الثامن عشر بصفة خاصة وبالتهم اللاذع لفولتير ضد الميتافيزيقية .

ومن وجهة أخرى شعر أوجست كونت بمدى الاضطراب العام وقلق النفوس الذى ساد بداية عصره ، وبرغم اضطراب الأفكار وذبذبة المذاهب الاقتصادية والاجتماعية فإن العلوم والاكتشافات التى بدأت فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر وأصلت تقدمها وتطورها ، وقامت بغزوات جديدة فى التفكير الإنسانى . وقدمت الوسائل الممكنة والطرائق المختلفة للوصول بالإنسانية إلى المكان اللائق بها . وبذلك اختفت تقريباً الفوضى الفكرية والأزمات النفسية فى منتصف القرن التاسع عشر . ومن هنا نشأت فلسفة أوجست كونت وهدفها إعادة تنظيم المجتمع .

وكان مرجع ذلك حاجة الناس الملحة إلى هذا التنظيم تجاه التقدم العظيم الذى أحرزته الإنسانية فى العلوم .

ولقد تصور أوجست كونت علم الاجتماع على غير ما تصوره الدين والتأملات الفلسفية التى كانت من وجهة نظره ما هى إلا آراء يناقض بعضها البعض ، وآراء خداعة مغشوشة ، وإذا كان ديكرت قضى على جميع الروابط التى كانت تربط الفلسفة والدين ، فإن أوجست كونت أقام سداً منيعاً بين الاجتماع والميتافيزيقيا . ومنذ عهده أصبح الطابع المميز لعلم الاجتماع عدم استخدام الميتافيزيقا . وإن كان هذا لا يمنع أنه قد حدث محاولات أكثر من مرة من جانب الميتافيزيقيا والدين لتتدخل فى إصلاح مبادئ التنظيم الاجتماعى .

ويقوم مذهب أوجست كونت على قائمة من المعارف الإنسانية ونظرية عامة للعلوم . وعدد هذه المعارف الإنسانية من وجهة نظره ست معارف : رياضة وفلك وطبيعة وكيمياء وعلم الأحياء . ويتوج كل هذه العلوم علم جديد أطلق عليه علم الاجتماع . وهو علم يقوم على دراسة المجتمعات من الناحية الموضوعية والطبيعية . وهذا الترتيب كما يقول كونت ليس من وجهة نظر عقلية فقط ، بل هو يساير كذلك تاريخ تطور العلوم .

وعلم الاجتماع كما يبسطه كونت له هدف واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو دراسة الكائن الاجتماعى من جميع نواحيه ، فهو يقول : إن المجتمع يتكون من الأفراد الأحياء الذين يعيشون فى فكرة من أتوا من بعدهم . وأن المجتمع مكون من حصيلة «تجربة» ومن مجموعة «معارف» ومن محتوى هذه المجموعات من المعارف الفكرية والروحية الموضوعية

للمجتمع وتربط هذه الفكرة الأجيال الواحد بالآخر . ومهما يكن فإن المجتمع الحى هو الذى يتشكل من الأفراد القابلين للتغير والتطور ، لأن المجتمع فى طبيعته سريع القابلية للتكيف مع الظواهر الخارجية بأشكالها المتنوعة ، وليس هناك كائن آخر فى مقدوره أن يحقق مثل هذا التقدم السريع المستمر بفضل تعاقب الأجيال .. غير الكائن الاجتماعى الذى يسود الزمن .

أما من جهة الطريقة التى يتحتم على علم الاجتماع استخدامها فيجب أن تكون قائمة على الملاحظة والاستدلال . وكان هذا الاتجاه مرتبطاً عند أوجست كونت بنظرية عامة للتطور الفلسفى . وتقرر هذه النظرية المعروفة تحت اسم « قانون ثلاث الحالات » أن الأفراد مروا عبر جهودهم المبذولة دائماً من الفهم والتفسير للعالم الذى يحيط بهم بثلاثة اتجاهات متعاقبة :

(١) الحالة الدينية : تقوم هذه الحالة على تفسير مختلف الظواهر عن طريق أسباب أولية مشخصة فى آلهة . فى المنظمات الاجتماعية التى كانت بهذه العقلية ، كان الاستعلاء الطبقى للجماعات الكنسية .

(٢) الحالة المبتايزيقية : حاول الأفراد أن ينتقلوا إلى مفاهيم أقل من المفاهيم الأولى والأسباب التى هى أكثر عمومية (وحدات مبتايزيقة) حلت محل الأسباب الأولية . وفى حياة الدول ، نجد أن العقيدة أكثر استعلاء عن الحقائق التى يتحتم عليها أن تنطوى تحت مبادئ واضحة ؛ مثل فكرة الحرية المطلقة ، وفكرة الفضيلة « المتكاملة » إلخ

(٣) الحالة الوضعية : تحتوى هذه الحالة على تفسير الظواهر عن طريق الأسباب الثانية باعتمادها على الملاحظة العلمية .

ويتحتم أن يكون الطابع الوحيد المميز للفلسفة الوضعية هو المطابقة على الحقائق، ويتحتم كذلك أن تكون هذه الفلسفة بعيدة كل البعد عن المذهبين التجريبي والتصوفي ويلزمها أن تبحث عن قوانين الظواهر، أعنى العلاقات الدائمة التي بين الظواهر الموضوعية تحت الملاحظة، ويجب أن تتم ملاحظة الظواهر بالتشابه في وقت واحد أو بالتعاقب، ثم تربط هذه الظواهر إما بالتشابه أو بالتسلسل، ويجب ألا نضع في اعتبارنا البحث عن الأسباب المطلقة، ولا الطبيعة الجوهرية للأشياء، فخلاصة الفلسفة الوضعية هي أن نضع الشيء النسبي مكان الشيء المطلق .

ويرى كونت أن علم النفس يجب أن يتوقف عن الظهور كعلم، ويجب أن يتقاسمه علم الأحياء وعلم الاجتماع، لأن الإنسان المنعزل كما يقول أوجست .. إنما وهو د تجريد سدرسى، والجنس هو الحقيقة .

وكما تدرس القوى في الطبيعة والكيمياء أولاً بطريقة التعادل وثانياً، بطريقة الحركة .. فيجب أن يقوم علم الاجتماع على شيئين هامين :

(١) التعادلة التي تقوم على دراسة الشروط الثابتة لوجود المجتمعات .

(٢) الديناميكية التي تقوم على دراسة قوانين تطور المجتمع .

ويتجه أوجست كونت اتجاه أسانذته وخاصة سان سيمون في أن تطور الانسانية أدى بالمجتمع إلى التقدم وهو يقول :

إن الفائدة العملية لعلم الاجتماع هي اكتشاف شروط التنظيم الاجتماعي من ناحية التعادل الاجتماعي، ومن ناحية الديناميكية اكتشاف قوانين التقدم، والنظام يؤدي دائماً إلى التقدم، والتقدم والنظام هما شعار السياسة الوضعية .

ومن وجهة نظر كونت ، فإن الحب الجامع الذى ينتج عن تعاطف متزايد مستمر ، والذى يدفع الانسان إلى حب أخيه الانسان ، هو دعامة البنيان الاجتماعى كله ، وعلى هذه الدعامة ينمو المجتمع ويتطور ويسود الإخاء وترفرف عليه الرفاهية والسعادة . وستكون الانسانية ، هدف هذا الحب بلا نزاع .

ومع ذلك يرى أوجست كونت أن الكائن الاجتماعى يجب أن يندمج فى شخصية متسلطة تسطاً مباشراً . ويجب أن نستشعر بالسلطة العليا المركزية فى كل ميادين الحياة الاجتماعية . وبذلك يعد من أنصار الذين يتادون بالحد من حرية التفكير ، ولذلك كان يمتق أشد المقت الاضطرابات والقلقل التى حدثت نتيجة الثورة سنة ١٨٤٨ ، ومن أجل هذا فرح وهلل عندما قبض نابليون الثالث على زمام السلطة بيد من حديد وقال : « إن حرية الضمير لا توجد فى الرياضيات » .

وفى نهاية حياته كتب بكل عناية عن وظيفة المجتمع الموجه فهو يرى : إقامة نوع من الدين مع حب « الإنسانية » ، التى تعتبر كأنها « الكائن الأعلى » . وهو يحاول أن يجمع فى هذا الدين كل العبادات الموجودة باختصار . مؤسسيها ، ورجالها العظام ، وعلى ذلك يتكوّن المجتمع من هيئة كنسية ومن سلطة عالية دينية وعلمية وسياسية ، ويتحتم على هؤلاء جميعاً أن يعملوا من أجل مصير الإنسانية .

وبرغم ما فى منهج أوجست كونت من مبادئ ونظريات تميل إلى الفوضى وعدم الوضوح ، فإنه يصف طابع المجتمع المثالى من وجهة نظره بأنه المجتمع القائم « على الحب كبداً عام ؛ وعلى النظام كقاعدة . وعلى التقدم كهدف . »

ستيوارت ميل Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) :

الفيلسوف والاقتصادي البريطاني ، ولد في ٢٠ من مايو عام ١٨٠٦ ، وتلقى كل تعليمه على يد والده ، وقد بدأ وهو في سن الثامنة بدراسة الفلسفة والجبر وغيرهما من العلوم ، وبدأ في تعليم الأطفال في أسرته ، وكان يقرأ الاقتصاد ويدرسه في سن الثالثة عشرة ، وبالرغم من أن طفولته كانت سعيدة فإنه قاسى من عدم التطور الطبيعي الذى يحدث دون ضغط أو قسر .

وذهب إلى فرنسا في مايو عام ١٨٢٠ وظل به إلى يوليو عام ١٨٢١ حيث كان يقرأ ، ويدرس الكيمياء وعلم النبات والمسائل الرياضية العليا ، ويدرس الناس والعادات . وفي سن السابعة عشرة عمل بمكتب الاختبار في « انديا هاوس » (دار الهند) وأصبح مساعداً في عام ١٨٢٨ ، ومن عام ١٨٣٦ إلى عام ١٨٥٦ وكل إليه قسم العلاقات مع أهالي البلاد الأصليين في شركة الهند الشرقية ، وبين عامي ١٨٢٢ و ١٨٢٣ أقام بين زملاء قليلين ما أسماه بمجتمع « المنفعة » ، utilitarisme .

انتهز ميل كل فرصة أتت له في الصحف للكشف عن التصرفات غير السليمة في البرلمان وفي المحاكم ، كما أنه كان يرسل مقالاته إلى الصحف أيضاً متناولا الموضوعات الفلسفية ، ومن أهمها مقالاته باسم « روح العصر » ، ونشرت سلسلة في صحيفة « أكراميز » ، عام ١٨٣٠ وفي عام ١٨٣٥ أصبح رئيس تحرير صحيفة « لندن ريفيو » ، التي ضمت في عام ١٨٣٦ إلى صحيفة وستمنستر ، وأصبحت تسمى « لندن آند وستمنستر ريفيو » ، التي ظل ميل رئيس تحرير لها ثم مالكا حتى عام ١٨٤٠ ، وفي ذلك

العام وما بعده نشر مقالاته في « أدنبره ريفيو » ، كما كتب أعماله الكبرى أيضاً خلال هذه السنوات في المنطق والاقتصاد السياسي ، وكان متأثراً بأوجست كونت ، ونيوتن في عام ١٨٤٤ كما نشر كتاباً باسم « مقالات عن بعض المسائل التي لم تحل بعد في الاقتصاد السياسي » ، وفي عام ١٨٤٨ نشر كتابه عن « مبادئ الاقتصاد السياسي » ، وبدأ دراسة الكتاب الاشتراكيين .

وقد تزوج مسز تايلور عام ١٨٥١ وقال إنها هي التي أوجت إليه بما كتبه عن حقوق المرأة وإنها هي التي أثرت على مثله العليا عن حياة الفرد والمجتمع ، كذلك تأثر ميل بتوماس كارليل وستيرلنج ، وقد توفيت زوجته بعد سبع سنوات من زواجهما وعاش بعد ذلك معظم ما بقي من حياته في فيلا في سانت فيران بالقرب من أفينيون حيث ماتت زوجته ، وأخذ يبحث عن السلوى في الكتابة عن علم الجمال والسياسة . وفي عام ١٨٥٩ كتب عن « الحرية » ، و « آراء في الإصلاح البرلماني » ، وفي عام ١٨٦١ كتب « دراسات في الحكومة النيابية » ، و « مذهب النفعية » ، عام ١٨٦٣ وعام ١٨٦٥ « دراسة فلسفة سيرويليام هاميلتون » ، « أوجست كونت والإيجابية » .

وبرغم دراساته النظرية فإنه لم يتخل عن السياسة وأيد الشماليين في أثناء الأزمة الأمريكية عام ١٨٦٢ ، وفي عام ١٨٦٥ انتخب نائباً في البرلمان عن وستمنستر ورفض أن يلجأ إلى الوسائل التي يتبعها الناخبون محاولين جذب الأصوات .. بل أنه بصعوبة وجه خطاباً للناخبين ، وبالرغم من ذلك فإنه نجح وأدى دوراً هاماً في مشروعات الإصلاح بين سنتي ١٨٦٦ و ١٨٦٧ للقضاء على الفساد واستخدم نفوذه في الدعوة إلى أن الواجب

يقضى بتدخل إنجلترا في شئون السياسة الخارجية تأييداً منها لقضية الحرية^(١).

ويتخذ ميل، لفلسفته الطابع العام الذى ساد القرن الثامن عشر وهو طابع التحرر ، فهناك حقائق في المجتمع ظهرت ، تبرر اتخاذ هذا الطابع من جانب بعض المصلحين الاجتماعيين والمفكرين : كالثورة الصناعية وشقاء الطبقات العمالية وزيادة الهائلة في عدد السكان والآه بريالية ، والتوسع الاستعماري والاقتصادى ، ومحاولات تنظيم العالم العمالي في نقابات إلخ .

وقد دفعت هذه الحقائق الجديدة عدداً من المفكرين إلى الاتجاه نحو الطريقة القديمة .. أعنى نحو اتخاذ القوة كوسيلة للحصول على بعض المكاسب للمجتمع الإنسانى . واتجه البعض الآخر إلى البحث عن إقامة مؤسسات لاسترداد حقوق المجتمع المسلوقة ، واتجه فريق آخر من أمثال بلانكى Blanqui وسورل Sorel إلى إقامة تنظيم هجوى بل بالأحرى عسكرى تقريباً للحصول على السعادة للطبقات المظلومة ، وبذلك اعتنق هؤلاء المفكرون وجهة نظر بعض المؤرخين التى تقول : إن تاريخ الإنسانية ما هو إلا سلسلة من تجارب القوة .

ويضع ستيوارت ميل حرية التفكير فوق كل شيء ، فثله كمثل فورييه Fourier يريد حرية كاملة لأنه كما يقول :

« إلغاء القوة الجسدية لا يكفى ، ولأن تسلط رأى العام واللوائح الأخلاقية تستعبد حتى الروح . »

(١) المترجم

فالشجاعة الأدبية التي تستطيع أن تقاوم التقاليد الموروثة أكثر ندرة في الرجل من الشجاعة الجسدية ، والوسيلة للهروب من خطر ركود المجتمع ومن بلاهته وبلادته هي الحرية ، وعلى الأخص حرية التعبير عن الآراء الجديدة ، التي هي المصدر الوحيد للتقدم الذي لا ينفد دائماً ، لأن الحرية تخلق من مراكز الإصلاح بقدر ما في المجتمع من الشخصيات الحرة . ، ولأن المجتمع يتجدد ويتطور كلية عن طريق عمل الأفراد الذين يتشكل منهم .

وبرغم الإعجاب الكبير الذي يكتنه ستيوارت ميل للفلسفة الوضعية ولأوجست كونت ، فإنه ينفذ كلية مفاهيمه الاجتماعية . فهو لا يؤمن بفضائل الأنظمة ذات السلطة حتى التي تمارس عن طريق مجلس أعلى من العلماء والحكام . أما من ناحية التطور السياسي فلم يعد هناك كما يقول إلا ، نظامان يتصارعان من أجل استعلاء كل منهما على الآخر : الديمقراطية والبيروقراطية . والحل الوحيد الممكن اتخاذه اتجاه ذلك هو أن على الديمقراطية أن تستخدم البيروقراطية في كل شيء . ولا تستأثر لنفسها إلا بالمراقبة والإشراف ، ، ويضيف إلى ذلك أن ، سلطة مطلقة عادية في بلد متمدين إلى حد ما .. أكثر ضرراً أيضاً من قرار ظالم يقضى بإلغاء التفكير وقوة الشعب .

ويحاول ستيوارت ميل أن يوائم بين الاقتصاد الحر والمشكلة الاجتماعية . وهو ينهى بحثه بقوله :

« إن قرار هذه الموازنة سوف يتركز على هذا الاعتبار الواحد ، أي على معرفة أي النظامين يمكن أن يعطي الحرية الإنسانية والذاتية الإنسانية

حداً أقصى لأنه عندما نضمن وسائل الحياة تصبح الرغبة في الحرية أقوى
الرغبات عند الإنسان ، وبدلاً من أن تفقد من قوتها فإنها تنمو بقدر نمو
الاستعدادات الفكرية والأخلاقية .

ولكى يحكم على قيمة التنظيمات المختلفة فإنه يجعل همه البحث عن
مقياس غير المقاييس التي استخدمها غيره من قبل ، فهو يقترح أن نحكم
على حسن أى تنظيم بما يحققه من الفائدة ، ومن السعادة المادية ومن الحرية
لأكبر عدد ممكن من الأفراد . وقد حكم على مذهبه الذى أطلق عليه
« مذهب النفعية » فى ذلك الوقت بأنه مذهب مناف للأخلاق .

ويقر ستيوارت ميل ، من ناحية أخرى ، انتقادات كل من « ريكاردو »
و « مالتوس » فهو مثلهما لا يعترف بأن الديناميكية الاقتصادية وخاصة
الديناميكية السكانية تؤديان إلى دعم الحرية . وهو يخالفهما فى طرق
العلاج فلا ينتظر فى سلبية وقوع الكوارث التى تحد من عدد السكان
بل يدعو إلى تنفيذ نوع من التربية الجنسية التى تؤدى إلى تحديد النسل ،
وقد حكم الناس على هذا الرأى كذلك بأنه رأى مخالف للأخلاق .

وأخيراً ، يعتبر « ميل » أول المنادين بتحرير المرأة من ناحية الحقوق
المدنية والحقوق السياسية لأنه كان دائم البحث عن أحسن الوسائل لتنمية
الشخصية الإنسانية ، وكان أكثر وضوحاً من أوجست كونت فى هذه
القضية ، لأن أوجست كونت اتخذها من الناحية العاطفية أكثر من أى
شىء آخر ، أما ستيوارت ميل فقد اتخذها من ناحية المبدأ لا أكثر
ولا أقل . ومن وجهة نظر ستيوارت ميل فإن العلاقات بين الرجال
والنساء فى شعب واحد لها أهمية أكثر من العلاقات مع الشعوب الأخرى

وان قضية تحرير المرأة قضية رئيسية لتقدم الإنسانية ، وهي تقف على قدم المساواة مع قضية الطبقات المظلومة ، وهو كفوريه Fourier تماماً في اعتبار أن المرأة ضحية آثار التنظيمات القديمة والخرافات البدائية التي لا تستند اليوم إلى أى منطق أو أى تفكير سليم .

كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) .

فيلسوف ألماني ولد في بلدة تريف Trèves في القطاع الألماني من حوض « الراين » ، وليست لدينا معلومات واضحة عن طفولته وحياته الأولى وإن كان مؤكداً أن أمه لم تقم بدور كبير في تعليمه وتثقيفه ، ثم أرسله أبوه إلى المدرسة الثانوية فكان موضع الشناء والتقدير من أساتذته بسبب نشاطه وجدده وارتفاع مستواه الفكري الذي بدأ في مقالاته الأخلاقية والدينية التي كانت تقدم إلى أساتذته ، كما كان مرزاً في الرياضة والدراسات اللاهوتية ، وظهر كذلك بذكاء خارق في الآداب والفنون .

و غادر ماركس المدرسة الثانوية وهو في السابعة عشرة حيث التحق ببناء على نصيحة أبيه بكلية الحقوق بجامعة « بون » ، وقد صمم فيها بينه وبين نفسه على متابعة جميع المحاضرات التي كانت تلقى في ذلك الحين ، ومنها محاضرات عن « هرمر » ، كان يلقيها « شليجل » المعروف ، ومحاضرات عن علم الأساطير اليونانية وفي الشعر اللاتيني وفي الفن . واشترك في جميع ألوان النشاط الجامعي ، وغرق في الديون حتى أذنيه ، ثم بعد ذلك ترك بون والتحق بجامعة برلين حيث تتلمذ في الفقه على يد « سافيني » وفي القانون الجنائي على « جانز » ، ثم هجر ماركس دراسته القانونية وكرس (٦ -) تاريخ

نفسه لدراسة الفلسفة ورسم لنفسه خطة تقوم على إعداد نفسه ليكون
حاضراً في الفلسفة في إحدى الجامعات ، وكان ماركس في ذلك الوقت
قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره .

وقد تعلم اللغة الفرنسية عن طريق قراءة مؤلفات المفكرين
الاشتراكيين الباريسيين أمثال « فورييه » و « برودون » الخ وقرأ
التاريخ الفرنسي والألماني الحديث ، كما قرأ كتاب « الأمير » لمكيافيلي
وانسكب على قراءة تاريخ الفن القديم والحديث .

وفي عام ١٨٤٣ تزوج ماركس « جنى فون وستفالن » ضد رغبة
أكثر عائلاتها . وكانت هذه الزوجة تتمتع بخيال عاطفي عميق ، وقد كرس
وجودها كله لحبائه وعمله واندجبت فيه عاطفياً وأخلاقياً ، فكان يعتمد
عليها اعتماداً كلياً في أوقات الشدة وفي أثناء الكوارث ثم هاجرا معاً
إلى باريس حيث يجد فيها ماركس مقسماً للنشر مبادئه وأفكاره . وقد
كتب بهذه المناسبة يقول :

« إن الجو هنا خائق لا يحتمل في الواقع . فليس من العسير على المرء
أن يتذلل حتى من أجل الحرية . لقد شتمت النفاق والغباء وفضاظة
الموظفين الرسميين ، وتعبت من طاعة الرأس وابتسكار العبارات التي
لاخطر منها ولا ضرر من ورائها . إن ألمانيا لم يعد فيها ما أستطيع أن
أفعله . إن المرء لا يستطيع فيها إلا أن يكون غير أمين مع نفسه » .

لقد تأثر كارل ماركس بالفلسفة المنطقية للفيلسوف هيغل Hegel
وبالفلسفة الإنجليز الكلاسيكيين ، ولذلك فقد استند إلى أن التاريخ
لا يمكن أن ينشأ عن طريق حوادث استبدادية مستقلة عن إرادة الإنسان ،

بل هو خاضع لإرادة تحددها دوافع . وتتطور الصور الاجتماعية تبعاً لبعض القوانين ، وبالوقوف على حقيقة هذه القوانين ، فإن ذلك يعنى فى الوقت نفسه تلس هذا التطور والتسكن بالمستقبل . وحتى يومنا هذا ، يعتبر التاريخ جمعىة صراع الطبقات ، فهو يقول :

« الإنسان الحر والرقى وصاحب المهنة ، ومن لا مهنة له ، والأمير والعبد ورئيس العمل والعامل ، كل هؤلاء بالاختصار ظالمون ومظلومون ، أقام كل منهم ضد الآخر قضية لانهاية لها ، وقد أعلن هؤلاء فيما بينهم صراعا مستمرا ، صراعا خفياً تارة ومكشوفاً تارة أخرى ، صراعا ينتهى بانقلاب ثورى للمجتمع كله ، أو بتحطيم الطبقتين معاً ^(١) » ،

وتقترب روحه الفكرية من روح الفلسفة الوضعية ، وعلى ذلك فثله كمثل أوجست كونت فى الابتعاد عن إثارة القضايا الميتافيزيقية والاختصار على دراسة الظواهر الاجتماعية ، وهو يقيم دراسة للمجتمع على نظريات اقتصادية ، ويعتبر أن هذه النظريات دعامة كل مجتمع إنسانى تسود فيه المساواة والإخاء .

وها هى ذى الخصائص الرئيسية لطريقة ماركس و « اجتماعيته » : فهو يقيم مكان نظرية هيجل الجدلية التى تنادى بأن الحقيقة الجديدة نسبية لانثبث أن تقابل بهجوم من حقيقة مضادة هى « النقيضة » لقضيتها فم يتبع ذلك أن تدمر كل منهما الأخرى وهكذا دواليك .. فتستمر العملية إلى ما لانهاية بمجموعة من التأثيرات أكثر تعقيداً ، حتى تتأثر القضية بنقيضتها فى نوع من حرية تبادل الآراء ، ومن ردود الفعل ومن الاستدلالات . إن « الجدلية » عند ماركس لم تعد كما هى عند هيجل نوعاً من

(١) للترجم

المباراة الجدلية اللفظية ، لكنها أضحت نوعاً من تحليل وضعي للقوى وخاصة في مواجهة الأفعال المتبادلة .

ويرتب ماركس على هذا التحليل : لماذا وكيف هذه المتنوعات الاجتماعية ؟ ويحتضن كل مجتمع كثير أمن المتناقضات ومن القوى المتنافرة ، وكية هذه المتناقضات لا تحصى ولا تعد . وبعض هذه التناقضات مثل المنافسات الوطنية والدينية أدمت العالم في فترات عدة . ومع ذلك فماركس يعتبر أن أهم التناقضات الاجتماعية هو صراع الطبقات وفي كل مجتمع مثل مجتمع العصور القديمة ، ومجتمع العصور الوسطى (الإقطاع) أخذ هذا الصراع صورة تختلف عن الأخرى .

ويرد ماركس على هؤلاء الذين لا يقرون أولوية هذا اللون من ألوان التناقض على غيره بحجة أنه لم يؤد إلى منازعات عنيفة ، بأن المنافسات الوطنية والدينية أخفت حقيقة الصراع الناشب بين الطبقات . وهو يعتبر من وجهة نظره أن هذه الشواغل (المنافسات الوطنية والدينية) ماهي إلا نوع من التصرفات اللاشعورية غالباً .

وقد ذكر ماركس أن تنظيم المجتمع على أسس قوية ودعامات ثابتة ينبغي علينا أن نبحث عنه في الاقتصاد السياسي . والصراع دائماً صدام بين بعض الطبقات التي تحدد معالمها العوامل الاقتصادية . والطبقة تعرف بأنها مجموعة من الأشخاص في المجتمع يحدد حياتهم تمتعهم بوضع اقتصادي مشترك في ذلك المجتمع . أما وضع الفرد الذي يقوم به في عملية الإنتاج الاجتماعي فيعتمد هذا بدوره على طابع القوى الإنتاجية ودرجة نموها . وقد نتجت عن هذا الصراع بين الطبقات العلاقات التي قامت بين

عنصرين أساسيين في الحياة الاجتماعية : القوى الإنتاجية من جهة وعلاقات الإنتاج من جهة أخرى . ويختص العنصر الأول بكل ما يؤدي إلى الإنتاج ، ويتضمن العنصر الآخر العلاقات القانونية التي نشأت بين الناس بمناسبة الإنتاج وتوزيع الثروة .

وتتطور القوى الإنتاجية تبعاً لإتقان الطريقة الفنية وتقدم العلوم وبذلك ينفسح المجال لإنتاج أكثر باطراد ، ولكن علاقات الإنتاج أشد صلابة فهي تقاوم التطور لأنها تخفي في ثناياها مصالح خاصة . وبذلك يتوقف تطور القوى الإنتاجية ومن ثم يكون من الصعوبة بمكان تنمية الإنتاج ، وعلى ذلك ينشب صراع ، فتحاول القوى الإنتاجية الحصول بطريق الثورة على تغيير العلاقات الانتاجية الموجودة لجعلها تسترد من جديد إمكانياتها الخاصة في تنمية الإنتاج .

ومن جهة أخرى ، تؤدي الملكية التي تعوزها وسائل الإنتاج إلى ظهور طبقتين اجتماعيتين تعيش كل منهما في صراع مع الأخرى : البرجوازية والبروليتاريا . والعمل الذي تؤديه هذه الطبقة الأخيرة يقدم فرقا كبيرا بين ثمن المنتجات وأجورها . ويعتبر هذا الفرق المصدر العام لأرباح الرأسمالية . ويوضح ماركس أن تضخم الفوائد أو الأرباح وحرية المنافسة تؤدي إلى الاحتكار الاقتصادي . وهذا الاحتكار الاقتصادي يزيد بدوره من شدة المفارقات الاقتصادية وتصارع الطبقات . وعلى ذلك فالملكية المحرومة من وسائل الإنتاج تؤدي كذلك إلى تكوين الاحتكارات التي يمكن أن تكفل لنفسها أرباحا مرتفعة دون تنمية الإلأاج ودون وجود الكفاية الإنتاجية .

وينعكس تأثير هذا على حساب العمال الذين لم يتمكنوا من الحصول

على توافق بين القوى الإنتاجية ووسائل الإنتاج إلا بثورة ، ويتحتم على هذه الثورة أن تؤدي إلى تغيير الملكية المحرومة من وسائل الإنتاج إلى ملكية جماعية . وسيخلق هذا التغيير توافقاً تاماً بين الإنتاج والاستهلاك ، وبذلك يختفى أحد التناقضات في النظام الرأسمالي . ولا يؤدي الاحتكار الصناعي إلى كساد الإنتاج فحسب ، بل كذلك إلى تحويل الطبقات المتوسطة إلى بروليتاريا ، وعلى ذلك تتسلسل البروليتاريا إلى معظم طبقات الشعب .

وقد ينشأ عن عدم اطمئنان العمال على مستقبلهم وعن تهديدهم من وقت إلى آخر بقذفهم خارج المجتمع ، وعن تكتلهم داخل المؤسسات ، تضامن وتكتف قوى فيما بينهم . وبهذا التضامن والتكتف يتولد فيهم إحساس اجتماعي وإحساس سياسي وهما دعامة التحرر المرتقب للبروليتاريا وللعمل ، فالبروليتاريا هي الطبقة الوحيدة الثورية من بين الطبقات الأخرى في المجتمع .

ويتحتم أن يكون هدف البروليتاريا من النشاط السياسي الحصول بالقوة على السلطة السياسية ، ثم انتزاع جميع رؤوس الأموال شيئاً فشيئاً من البورجوازية ، لكي يتركز بين يدي الدولة كل آلات الإنتاج ، ولكي تزداد بأقصى سرعة القوى الإنتاجية .

والثورة التي تعقب الدكتاتورية الرأسمالية يتحتم عليها أن تؤدي إلى الديمقراطية وإلى مجتمع لا طبقي . ويتحتم كذلك أن يصاحب الإنتاج الجماعي الملكية الجماعية واختفاء الدولة . وسيحل محل الدولة بعد اختفائها تنظيم تلقائي . وسيكون هدف الاقتصاد الاشتراكي الجديد التنسيق المبني على العقل للإنتاج والاستهلاك . وبعد أن يتحكم الإنسان في ضرورياته

المادية ، سيستطيع أن يقيم نفسه بنفسه وسوف يرتفع بميدانه الروحي .
وسوف يعمل كذلك على الارتفاع بمستوى طبيعته .

ويمكن أن نقول : انه منذ القديس أوجستان Saint Augustin لم ينل أى مذهب اجتماعى من الخطوة والتقدير مثل ما ناله مذهب ماركس ، فقد أصبح هذا المذهب الاجتماعى الملهم المباشر والمؤثر النافذ لمعظم الحركات السياسية المعاصرة ، خصوصا فى القارة القديمة ، ولجتمعات الجنس الأبيض التى انقسمت فيما بينها إلى اتجاهين ، وأصبح كذلك كعقيدة دينية للدول فى كثير من الشعوب ، وكان هذا بمثابة تحول خطير غير متظر لمذهب جديد فوجيء العالم به ، فقابله الناس فى أول الأمر بحذر شديد .

وقد قادت أفكار ماركس رسميا تنظيم دول كثيرة وقلبت رأسا على عقب البنيان الاجتماعى القديم والأفكار الموروثة القديمة لبعض شعوب آسيا .

هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣)

فيلسوف انجليزى ولد فى دربى وكان والده مدرسا ورفض عرض عمه بإدخاله جامعة كبردج ، وتلقى تعليمه بدلا من ذلك عن طريق القراءة وخاصة فى العلوم الطبيعية ، ثم عمل لعدة شهور مدرسا ، ثم مهندسا فى السكك الحديدية .

وقد أثرت فيه معتقدات والده المنشقة على الدين ، وأوحت إليه بروح عدم الانتهاء إلى أى دين ، وفى عام ١٨٤٢ بدأ يرسل بعض

الخطابات إلى نانكو نفورمبست (اللامتعى) وأعيد نشرها في كتيب عام ١٨٤٣ تحت عنوان « المجال السليم للحكومة ، قال فيه :

« إن عمل الحكومة هو أن تعمل على تدعيم الحقوق الطبيعية وانه إذا تجاوز ذلك فإنه يسبب من الضرر أكثر مما يحققه من النفع » .

وبعد اتصاله لفترة معينة بصحيفتي « زويست » و « يلو ت » أصبح نائباً لرئيس تحرير الايكونوميست عام ١٨٤٨ ، وفي عام ١٨٥١ نشر « ستاتيكا الاجتماعية » التي ضمت معظم آرائه فيما بعد ، ونادى بضرورة أقصى حد من الحرية الاقتصادية والاجتماعية وفي عام ١٨٥٣ ورث هـ ربرت سبنسر عمه واستقال من عمله في صحيفة الايكونوميست .

وفي عام ١٨٥٥ نشر مبادئ علم النفس ، ويعتبر من كبار المفكرين « الجدلانيين » في آخر العصر الفيكتوري ، كما أنه كان من بينهم أكثر من أثر حوله الجدل . وكان من أشد المتحمسين للنظرة العلمية الطبيعية للعالم . ومن أشدهم معاداة للنظرة إلى ما وراء الطبيعة وهو أول من نادى بنظرية « التطور » ولذلك كان أشد دعاء مبدأ الحرية Laisser Faire تحمساً مع عدم النزول عنه قيد أنملة ، وقد حث على دراسة الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية . الشيء الذي قام هو به نفسه . وكان داعية النفاؤل في العصر الفيكتوري ، ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بروح التشاؤم التي كانت في ذلك العصر ، والتي كانت تحجم عليه بين الحين والحين ، ولقد ورد في تعاليه أن « التطور » سيتلوه التحلل وأن « الفردية » لن تجد نفسها إلا بعد عصر يشهد الاشتراكية والحرب .

نشر فكرته عن التطور قبل دارون وراسل وآلاس . وتختلف فكرة سبنسر عنهما في أنه يرجع إلى وراثة القدرات المكتسبة على حين

أن الآخرين يرجعونها إلى الاختيار الطبيعي ، ولكنه قبل فيما بعد نظرية التطور على أساس الاختيار الطبيعي ووضع عبارة « البقاء للأصلح » في مبادئ علم الأحياء وإن ظل متمسكا بأن التغيرات التي تصيب جزءا من حيوان معين نتيجة لمؤثرات خارجية يمكن أن تورث من يأتون من بعده .

وتقضى نظريته « التطورية » بأن التطور يحدث لكل شيء إلى أن يحدث نوع من التوازن يليه التحلل ثم التكامل من جديد ثم التوازن فالتحلل إلى ما لا نهاية . وقد طبق هذه النظرية على المجتمع الإنساني من جماعات أشبه بالقطعان ، ثم تنقسم ويزداد تقسيمها إلى أن تصل إلى المدنات المدمجة التي تمثل تطور العقائد والأعمال وفئات المجتمع المختلفة .

وفكرة سبنسر عن المجتمع فكرة « تركيبية » و « موسوعية » ، لكن الفكرة الأساسية هي نشر « التطورية » في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لأنها تعتبر خلاصة جميع الأفكار الفلسفية في ذلك الوقت ^(١) .

وعمل العلم في نظر سبنسر استخلاص الصورة القطعية الدائمة لعدد من الحقائق المتغيرة . والقوانين القطعية هي قانون الاحتفاظ بالقوة وقانون التطور . وكل طريقة للوجود في نظره ، كما في نظره كونت ، عبارة عن تطور لطريقة سابقة وتطور بذور طريقة لاحقة .

ويحتوي قانون التطور على تغيير بطيء لتحرير مجموعة من المواد المتجانسة إلى مواد غير متجانسة ، إذن ، فهذا القانون عبارة عن تطور

(١) للترجم

الاختلافات المتباينة في جميع الميادين . ففي الميدان الاجتماعي تبدأ مجموعات من الناس بأن تكون نوعاً من القبائل يكون أعضاؤها جميعاً على مستوى فكري وتكنيكي واقتصادي واحد . ثم بعد ذلك ينظمون أنفسهم بأنفسهم ويصبجون مجموعات مركبة حيث نلـس فيها شيئاً .. فثيناً اختلافاً في تقسيم العمل وفي العلاقات التشريعية بين الأفراد .

«وكونت» الذي يؤمن بتوقف الظواهر ينكر إلى حد كبير «الميكانيكية» وينتهي إلى نوع من الحرية على حين أن سبنسر يعتقد أن هذه الحرية مستمرة في التطور . وإذا كانت الحرية تحكم الميكانيكية، فهذا لأنها خارجة منها ، وذلك بفضل نوع من السببية الدائمة التي هي التطور نفسه ، ولكن التوازن بين وجهة نظر سبنسر ليس بالثني الدائم أى الذى يمكن أن يستمر فترة طويلة .

ونظرية التطور عند سبنسر تعارض التطور العكسى والتحلل والرجوع إلى اتحاد العناصر المختلفة ، والذي يبدو له من وجهة نظره مرادفاً لكلمة انهيار أو شيخوخة . وقد انتقد مسيو لالاند Lalande هذه المفاهيم وأشار إلى أن معظم التقدمات الأخلاقية تم عن طريق تماثل الأفراد وعن طريق مرونة البناء الاجتماعى المتصلب أو هدمه وإعادة تنظيمه من جديد .

وفي السياسة ، يعتبر سبنسر من المفكرين المحافظين بصورة تختلف عن كونت ، فدور العمل الإدارى الفردى بالنسبة له دور لا أهمية له . فطور الجماعة محدود بعدادات لاشعورية راسخة في التركيبات العنصرية الموروثة . والحكم الحقيقى لهذه الجماعات يتمثل في مزاج الشعب نفسه ، وعلى ذلك فكل محاولة اندزالية للتغيير — حتى لو كانت هذه المحاولة من جانب دكتاتورية عادلة حكيمة متزنة كما تخيلها أوجست كونت — تبدو للفيلسوف

سينسر محاولة بعيدة عن العقل ، وخارقة للصواب تدل على الجهل
بميكانيكية المجتمعات وسرعة تطورها التي لا تقف عند حد . فكل شيء
جديد ومستحدث لا بد أن ينبثق تلقائياً عن المجتمعات على حسب
تكوينها وظروفها التي تعيش عليها .

ويحاول سينسر جهد طاقته أن يستخلص قانوناً عاماً لتطور
المجتمعات . فهو يبين أن هناك نموذجين :

١ - النموذج العسكى الذى يغلب فيه الإكراه والقوة ويمثل
هذا النموذج الإقطاع .

٢ - النموذج الصناعى القائم على تقسيم العمل الذى يغلب عليه
ظهور العلماء والمهندسين ورجال الصناعة .

وخلاصة القول .. اعتبر سينسر كأنه مؤسس لوجود حياة المجتمعات
بوساطة العلاقات التي تطورها بين مختلف الوظائف الاجتماعية وبين
علاقات النمو العضوى للمجتمع ، ولكنه يلاحظ أنه ليس في النمو
العضوى للحيوان إلا مركز واحد حساس . وهذا المركز الواحد الحساس
يتركز فقط في رأس الحيوان . وكل الحيوانات مشتركة في هذه الظاهرة ،
على حين أنه في الهيكل الاجتماعى للأفراد تتمتع جميع الأعضاء بهذه
الظاهرة . ومن هنا يستخلص نتيجة هامة جداً .. هي أنه بينما لا يوجد
وجدان اجتماعى مشترك بين الجميع ككل ، بل يوجد في الأفراد ، فإن
نهاية الحياة الاجتماعية هي الفرد . وعلى ذلك يقرر سينسر أنه يتحتم
أن يتخدم الكل الجزء . لا العكس ، بمعنى أن على المجموع أن يتخدم الفرد
وليس الفرد هو الذى يتخدم المجموع .

لم يكن نيتشة اجتماعياً بمعنى الكلمة ، ولكن قام بطريقة غير مباشرة بدور هام في التفكير الاجتماعى والسياسى . فقد كان من الأوائل الذين انفصلوا عن تقليد حب الشعب والمساواة (على الأقل المساواة الروحية التى سادت منذ ظهور المسيحية) فقد راح يدافع عن تنظيم أرستقراطى واعتنق مبدأ التضحية بالمجموع من أجل الأفراد المميزين وهو يقول : إن كل شيء مباح للارستقراطيين الحقيقيين .

وباختصار فإن نيتشة يتكهن بظهور أرستقراطية جديدة ويدعو إلى تحريرها من قيود المسيحية ومن التواضع والشفقة ، وسوف تتبنى هذه الأرستقراطية الجديدة نمطاً أخلاقياً يهدف إلى اعتبار الشعب وسيلة لتحقيق عظمتها فى خدمته « إرادة القوة » .

وهو فيلسوف ألماني ولد في ريكين Roechen وهى بلدة صغيرة بالقرب من ليبزج . كان معظم أفراد عائلته من رجال الدين . ممن شغلوا مناصب دينية كبيرة ، وقد توفي أبوه وهو فى سن الخامسة . وفى سن الحادية عشرة تقريباً التحق بمدرسة بفورتا Pforta ثم غادرها إلى جامعة بون بعد ست سنوات ، وفى خلال تلك الفترة ، أظهر تفوقاً كبيراً فى دراسة اللغويات والآداب الكلاسيكية ، وفى العام الذى تخرج فيه من الجامعة ، اختير أستاذاً لفقه اللغة فى جامعة بازل .

وكان مصدر وحى تفكيره الفلسفى شوبنهاور Schopenhawer وفاجنر Wagner ، بيد أنه انقطع عن التدريس فى الجامعة ، ثم أخذ يطوف بأرجاء إيطاليا وسويسرا . وبعد هذه الرحلات ، بدأت فترة

أخرى في حياة نيتشة ألا وهي فترة التأليف والكتابة . وكان كل كتاب يؤلفه يعد نصراً على حالة العمى التي أصيب بها والصداق وغيرهما من الأمراض الكثيرة التي أصابته ، وتنتمى أعماله الكبرى إلى هذه الفترة ، ولم يشتهر حينئذ إلا عند ما كان جورج برانديس يحاضر عن نيتشة في جامعة كوبنهاجن عام ١٨٨٨ . وبعد عشر سنوات أصبحت شهرة نيتشة تطبق الآفاق . وفي يناير عام ١٨٨٩ أصيب بانحيار عصبي وجسماني وظل في شبه حالة جنونية إلى أن مات .

ويرى نيتشة أن الداعين للنظم الاشتراكية مخطئون في فهم ما يجب أن يكون عليه مفهوم البنيان الاجتماعي ، ومخطئون كذلك حينها ادعوا أنهم وضعوا أنفسهم موضع الطبقة الدنيا وأحسوا بما هم فيه من آلام . لأن الآلام لا تزيد إلا كلما ارتفع المستوى الثقافي ، والطبقة الدنيا هي طبقة أقل إحساساً بالآلام . ويرى نيتشة أن العدالة الحق هي أن تمنح الطبقة المحاكمة قدرأ من المساواة . أما أن تطالب هي بالمساواة فهذا حقد وطمع . والواقع أن هذه تعتبر دعوة منه إلى الاعتراف بتقسيم النصيب في الميدان الاقتصادي والثقافي والاجتماعي .

ويرى نيتشة أن تحقيق حياة أفضل لأكبر عدد ممكن من الناس تقضى على التربة التي نبقت فيها العقول الكبيرة والأفراد العظام . ورجته في ذلك أن الإنسانية إذا وصلت إلى حد الاكتفاء بين أفراد المجتمع فلن تتقدم بعد ذلك خطوة واحدة . وهو ينكر على الطبقة الدنيا مهما أخذت من أسباب التقدم والحضارة أن تكون قادرة بأية حال على خلق الأفراد العظام ، لأن هؤلاء يخلقون تلقائياً . أما الطبقة العليا فهي التي يجب أن تحكم وتقود وتوجه الشعب كما تريد .

والغريب في الأمر ، أن نجد نيتشة يناقض نفسه بنفسه حيث يقول :

« إن التفرقة بين الحكومة والشعب ، كما لو كانا يمثلان مجالين منفصلين من مجالات القوى يتعامل أحدهما وهو الأقوى والأرفع ويتحد مع الآخر وهو الأضعف والأحط ، هذه التفرقة جزء من فهم سياسي موروث لا يزال يمثل النظرة التاريخية الثابتة للعلاقات بين القوى في معظم الدول تمثيلاً صادقاً ، وعلى العكس من ذلك ، ينبغي أن يعلم الناس الآن ، وفقاً لمبدأ يصدر عن الذهن وحده ، ولا يزال عليه أن يشق طريقه في التاريخ ، أن الحكومة ليست إلا أداة الشعب ، وليست شيئاً عالياً مبعجلاً بالقياس إلى شيء أدنى قد اعتاد الضعة والانحطاط » .

إذن فنيشة كان يؤمن بتدوير التفرقة بين الحكومة والشعب وليست هناك طبقة « عليا ، وطبقة دنيا .

ويبنى نيتشة فكرته التي يؤمن بها وهي فكرة التفاوت الطبيعي بين الأفراد ، على أن الطبيعة لا تعرف إلا التفاوت في الرتبة ، وكل محاولة لجعل الناس متساوين محاولة مضادة للطبيعة ، ويحمل نيتشة على كل مفكر يحاول مناقشة هذه الفكرة لأنها من البديهيات التي لا تحتمل النقاش . ويستطرد نيتشة في هذه النقطة بالذات فيقول إن مراتب الناس الحالية في المجتمع هي مراتبهم الطبيعية نفسها : فالثروة في رأيه مصدر لعراقة الأصل : « إن الثروة تولد بالضرورة أرستقراطية في الجنس ، إذ تمكن من اختيار أجمل النساء ، ومن جلب خير المربين ، وهي تضفي على الرجل صفاء ، وتمنحه الوقت الذي يتعهد فيه جسمه بالرعاية ، وأهم من ذلك كله ، تعفيه من العمل البدني الثقيل . وفي موضع آخر يقول :

« إن كل ارتقاء بالنوع الإنساني كان حتى اليوم من عمل مجتمع أرستقراطي ، وسيكون كذلك دائماً : أعني مجتمعاً يؤمن بالتفاوت الكبير في المراتب بين الإنسان والإنسان وتباين قيمة كل منهما ، ويرى الرق بأى معنى من معانيه ، ضرورة محتومة » .

وفي موضع آخر نرى نيتشة يحمل حملة شعواء على أغنياء عصره وخاصة أصحاب الأعمال منهم . ويؤكد أنهم ليسوا أصلح الناس إطلاقاً حيث يقول : « لقد كانت العلاقة بين الجنود وقوادهم دائماً أرفع بكثير من علاقة العمال بأصحاب العمل ، وهنا يتحكم قانون الحاجة لخصب : أى أن المرء يريد أن يعيش وعليه أن يبيع نفسه غير أنه يحتقر ذلك الذى يستغل هذه الحاجة ويشتري منه العمل ، وما يسترعى الانتباه أن الخضوع لأشخاص أقوياء يثيرون الخوف والرعب ، أى الخضوع لطغاة أوقواد جيوش لا يكون إلا بقدر الخضوع لأشخاص غير معروفين ولا همية لهم كالحال فى كل رجال الصناعة الكبار : فالعامل لا يرى فى صاحب العمل عادة إلا شخصاً تافهاً يتصف بالخدعة والجشع . ومن الجائز أن كل رجال الصناعة وكبار رجال الأعمال فى التجارة يفتقرون تماماً حتى الآن إلى كل صفات « العنصر الرفيع » وسماته التى بدونها لا تكون للشخصية قيمة ، ولو كان لهم ذلك السمو الذى تضيفه عراقة الأصل على نظراتهم وعيائهم . فربما لم تكن تقوم لاشتراكية الدهماء قائمة ، وذلك لأن الدهماء يمكنهم أن يتحملوا كل أنواع العبودية بشرط أن يثبت من يعلو عليهم انه أرفع منهم بحق وانه « ولد » لكى يأمر وذلك عن طريق صورته الرفيعة ، غير أن الافتقار إلى الصورة الرفيعة والتفاهة الوضعية التى يتصف بها أصحاب المصانع بأيديهم الحوراء السمينة تثير فى ذهن العمال تلك الفكرة ، وأعنى بها أن الاتفاق والحظ وحدهما

هما اللذان رفعا الواحد فوق الآخر فتكون النتيجة أن يقول العامل لنفسه
حسنا فلنجرب نحن الاتفاق والحظ ، ولنلق نحن بالنرد ، وهنا تبدأ
الاشتراكية ، (١)

ولنبتشة رأى خاص فى المرأة باعتبار أنها تمثل دعامة من دعومات المجتمع
الإنسانى ، فهو يرى أن طبيعة المرأة ذاتها عقبة ضد تحريرها إذ أنها محافظة
بطبيعتها تحترم السلطة السائدة والأفكار التى يقرها المجتمع . وهو يؤكد
أن « الروح الحرة لا تعيش مع المرأة » ، والرجل من جهة نظره أعمق
بكثير من المرأة فى روحه ورغباته وآماله فى الحياة . ولذلك فهو ينظر إلى
المرأة على أنها متاع للحياة ، وأن دورها فى المجتمع هو الدور الذى يجب
أن تقوم به داخل منزلها ، ويقصر دور المرأة على إنجاب الاطفال ورعاية
الزوج وإذابة شخصيتها فيه .

الفصل الثاني المدارس الاجتماعية

يعتبر سبنسر آخر من تحدث من أعلام الفكر الاجتماعي عن النظم الاجتماعية ، ونعني بذلك النظم التي حاولت جهد طاقتها أن تدج بعض الظواهر الاجتماعية في نظرية عامة للعالم . ومنذ عهد سبنسر ، شاهدنا ظهور عدد من المدارس لها طابع مشترك . وهذا الطابع المشترك بين كل مدرسة وأخرى يتلخص في عددي وجهات النظر الاجتماعية التي أطلق عليها أسميراً ، اجتماعية الدوافع .

ونظريات الدوافع التي أطلق عليها سوروكين Sorokin اسم « نظريات من طرف واحد » ، تشترك جميعها في رأي واحد ؛ فهي تحدد موقفها من وجهة نظر واحدة ميكانيكية ، والمقصود بها تفسير تغير المجتمعات . وهذه التغيرات واضحة بدينة ومتعددة ، ولكن أسبابها متشابهة معقدة ، ومن الصعب تلخيصها بالوقوف على أسبابها ، ولكي نصل إلى تفهم أسباب هذه التغيرات وما يحيط بها من تعقيدات ، يجب علينا تحليل حقائق المجتمع وتفسيرها .

وقد اهتم واضعو هذه النظريات اهتماما كبيرا بدراسة تشعب الدوافع التي تؤدي إلى التغيرات الاجتماعية وتبنيها . وتنصب المناقشة في هذا الموضوع على أهمية الأعمال الخاصة لهذه المجتمعات وحدودها ، وعلى معاييرها إذا جاز القول .

والنقط المشتركة بين هذه النظريات بعضها وبعض هي :

(١) أن تبحث هذه النظريات عن دافع هام .

(٢) أنها بوجه عام ، توافق بكل صعوبة على أن دور كل من هذه الدوافع خاضع بنفسه لبعض التغييرات والتقلبات . والدافع القطعى اليوم يمكن أن يؤدى دوراً ثانوياً فى الغد تبعاً لبعض الظروف أو العوامل ، وهذا لا يمنع قطعاً من أن يسترد دوره القطعى بعد اختفاء طال أو قصر نتيجة لظروف جديدة .

المدرسة النفسية

ويمثل هذه المدرسة حق التمثيل جابريل تارد Gabriel Tarde (١٨٤٣ - ١٩٠٤) وهو يعلن تفوق الدراسة النفسية على الدراسة البيولوجية . وتفسر التطورات العقلية الفردية المتكررة أهمية الظواهر الاجتماعية .

وهناك حقيقتان من الأهمية بمكان : الأولى الاختراع أو التجديد ، والأخرى المحاكاة أو التقليد . فالحقيقة الأولى ظاهرة فردية ، ومن خصائصها الخلق ، وإنشاء الطرائق الفنية ، وكذلك التنظيمات الجديدة ، أما الحقيقة الأخرى فمن خصائصها تعميم هذه المستحدثات ومحاكاتها ونشرها .

ويمكن تعريف المجتمع بأنه مجموعة من الأفراد يقلد بعضهم البعض الآخر ، ويقول جابريل تارد : إن هناك صورتين رئيسيتين للتقليد هما : تقليد التقاليد ، التى تنتقل من جيل إلى جيل آخر ، والأخرى بين أفراد الجيل الواحد نفسه وهى تقليد العادة ، وعلى أية حال فإن التقليد بوجه عام وبصورتيه السابقتين ينتقل عادة من الأعلى إلى الأسفل ، ونعنى بذلك

أنا نقصد تلقائيا الأشخاص أو المجتمعات التي لها في نظرنا كيان مرموق وسلطة قوية . ويلاحظ جابريل تارد أن للتقليد طريقتين : الطريقة الأولى تنحصر في تقليد « النموذج » ، أما الأخرى فهي تبني « النموذج » المضاد (التقليد - المضاد) .

ويشبه جابريل تارد حياة المجتمعات ببحيرة تعبرها سلسلة من الأمواج ذهابا وجيئة . وغالبا ما تصطدم هذه الأمواج بعضها ببعض . وينتج عن ذلك ، التحامات أو مصادمات أو مصالحات .

والنفسية الاجتماعية - من وجهة نظر جابريل تارد نفسية وجدانية . وينبئ عليها والحال هذه أن تبحث عن تعاريف للحالات المختلفة التي عن طريقها يؤثر كل مجتمع في الآخر ، ويحمل كل منهما طابع الآخر . وهذه الظاهرة بالضرورة ظاهرة نفسية ، وتحتوي على أطوار ومواقف وتطورات مميزة مثل المعارضة والنموذ والإلهام والبرهنة والسلطة .

والنقد الذي وجه إلى جابريل تارد أنه أطلق العنان إلى أقصى حد لفكرة التقليد ، والحقيقة أنها لم تكن واضحة تمام الوضوح ، وأنه طبقها على جميع الظواهر المتشابهة .

واحتلت دراسة الظواهر النفسية المقام الأول عند علماء اجتماعيين آخرين أمثال فاكسفيلر Waxueviller ووسترمارك Westermark وتعزى المكانة الأولى لتفسير الظواهر الاجتماعية من وجهة نظرهما إلى الفرائز والميول أو الاستعدادات . وقد سار على هذا المنوال كثير من علماء الاجتماع الأمريكيين أمثال جيد ينجز Giddings وكولي Cooley وسمول Small وعلى الأخص ماك دوجال Mac Dougall وهذا الأخير في دراسته

للفنسية الاجتماعية ، يبدأ بسيكولوجية السلوك وهى طريقة مأخوذة عن المفكرين الإنجليز ، ومن ثم يحاول أن يلاحظ بدقة « محاكاة » ردود الفعل النوعية بقصد أشياء محدودة .

والشئ الذى يثير الانتباه هو دراسة الجماهير . فجميع المفكرين الذين أتينا على ذكرهم آنفاً متفقون على أن أى جمهور من الناس ليس هو حصيله أعضائه الذى يتشكل منه ، بل إنه نوع من جوهر سيكولوجى متميز عن السيكولوجية الفردية . وقد قامت هذه الدراسات أولاً على التظاهرات المريضة للجمهور: العنف وحامات الدم والسلب ، والنهب ، والعصيان إلخ . ويتمنخض عن ذلك نتائج كلها تشاؤم تجاه الجماهير التى تبدو وكأنها جماهير عشوائية أو جماهير عتيقة أو جماهير إجرامية . وهذا يعتبر حكماً جزئياً من هذه الوجهة ، لأن هناك آلافاً من الجماهير الهادئة الوداعة ، ويمكن أن يدرج من بين المدارس النفسية ، المدارس التى اهتمت بنفسية الشعوب . مثل المدارس الألمانية لهربارت Herbart ، ولازاروس Lazarus ، وستنتال Steintal .

ونضيف إلى هذه المدارس المحاولة التى أجريت فى هذا الميدان من جانب جوستاف ليون Gustave Lebon وفويه Fouillee وكيسرلينج Keyserling وإيلي فور Elie Faure ومادرياجا Madriaga ... إلخ .

وقد أسدت مدارس التحليل النفسى لفرويد Freud ويانج Young وادلر Adler خدمات عظيمة ومساعدات كبيرة لعلم الاجتماع النفسى . فقد حددت عدداً معيناً من الملاحظات النفسية ، وبصفة عامة لا شعورية ونموزجية . وتأتى هذه الملاحظات فى أغلب الأحيان من مواقف اجتماعية

وهي توضح الانعكاسات في حياة الإنسان الداخلية ، والمصادمات التي تنشأ عن المضايقات الاجتماعية والأحداث التي تظهر في صورة احتجاجات علنية أو مظاهرات . وتعتبر الانعكاسات في حياة الإنسان الداخلية عن مدى المنافسة بين جيل وجيل آخر . فمركب النقص ، وامتداد التعويض مظهران أساسيان من مظاهر فوارق الطبقات الاجتماعية التي نعني بها التسلسل الطبقي الذي يبدأ من طبقة النبلاء إلى طبقة الإداريين إلى طبقة الشعب إلى طبقة المهندسين .

ويفسر الشعور بالذنب عددا من الاتجاهات ومن ردود الفعل . وتد يتجه هذا الشعور من فرد من الأفراد إلى صورة التخريب والدمار في ذاته لكل شيء . وقد يتحول هذا الاتجاه في فرد آخر إلى منافسات ، وإلى أحقاد وبغضاء وإلى خوف وإلى اضطرابات .

وقد نلاحظ الأهمية الضخمة لهذه النماذج في الحياة الاجتماعية وفي نضج المذاهب الدينية والسياسية ، ويوضح الشعور بالذنب مدى عمق المبادئ الأخلاقية المناصلة فينا وهي متمثلة دائما في فكرة الإثم والخطأ والعزاء والاستشهاد والتكفير والتوبة والعقاب . وتقوم كل هذه الأمور بدورها في الحياة السياسية والاجتماعية، ويمكن القول بأن طابع كل بنيان اجتماعي هو إثارة بعض مركبات النقص . وتعتبر مركبات النقص هذه عن القلق والاضطرابات والمتناقضات ، والعقبات التي تتمخض عن المنظمات والمعتقدات الجامدة وصادماتها ، وتعتبر الحوادث التاريخية مثل الحروب والثورات والأزمات إلح عن طريق الآلام التي تسببها خالقة لمركبات النقص في المجتمع التي توحى بهد ذلك بردود الفعل والاتجاهات المميزة لأي جيل .

المدارس الميكانيكية والبيولوجية

يمكن أن يتجمع تحت هذا العنوان مدارس كثيرة متنوعة . ومن هذه المدارس تنطلق عدة وجهات نظر مختلفة لالشيء . إلا لكي تصل إلى نتائج خالية من كل وجهة نظر « غائية » ، ومن كل اعتقاد في أية نتيجة حاسمة تؤدي إلى تطور الإنسانية . وثبت وجهات نظر هذه المدارس عن طريق العلوم الطبيعية والبيولوجية ما عرف عن ابن خلدون وهوبز Hobbes من قدرية متشائمة مستسلة ، وما عرف عن هوبز من تشيع في الفلسفة للمذهب المادية وفي الأخلاق للمذهب النفعية ، وفي السياسة للمذهب الاستبدادية .

وقد تشكلت أول مجموعة من هذه المدارس عن طريق هؤلاء الذين ينكرون كل اتجاه صادر عن العناية الإلهية يقود الإنسانية نحو تقدم وإصلاح متواصلين . ونلاحظ أن أصحاب هذه المدارس يتخذون موقفا متميزا عن موقف مفكرى القرن السابع عشر وخاصة ديكارت وسبينوزا وجروتيس Grotius ، وماليرانش Malebranche وليبنز Leibniz حتى بيل Bayle وكل هؤلاء أعداء لفكرة الغائية ومذهبها ، ولتغلغل الأخلاقية في كل مذهب .

وقد بدأ الاقتصاديون الأوائل بأن كانوا علماء بيولوجيين مثل كسناي Quesnay ، أو فلاسفة مثل آدم سميث . أما ماركس وبارتو Pareto فقد بدأ بدراسة الاقتصاد أولا ثم انتقلا إلى دراسة الاجتماع ثم أدجا الاثنين معاً .

ويعتبر بارتو Pareto ، مشله في ذلك مثل « فالراس » Walras

« وكورنو ، Cournot أحد مؤسسى الاقتصاد الرياضى ، فقد حاول أن ينقل إلى علم الاجتماع طرائق التحليل الرياضى . ويمكن القول بأنه حتى عهد بارتو ، كان عند جميع علماء الاجتماع موقف تصوفى تقريبا يكاد يكون غير ملموس . ويهدف هؤلاء جميعاً إلى اتجاه أساسى ، وهدف مشترك نحو مستقبل الإنسانية . ومنذ عصر الحضارة ، وجميع المفكرين يعتقدون تطوراً حتمياً ، فالبعض منهم ركز دراسته وأفكاره على الأضواء المتزايدة التى تشعها الحضارة على الإنسانية ، والبعض الآخر ركز على دراسة نظريات التقدم .

والواقع أن علم الاجتماع الكلاسيكى كان لايهم بتاتا بالطريقة القصصية التى درج عليها المؤرخون . فكان هؤلاء يغتبطون ويسرون من سرد الحوادث الكثيرة المثيرة ذات الطابع التراجمى والمسرحى . وكانوا يفضلون غالباً سرد قصص الانقلابات والمصادمات العنيفة ، ولكن علماء الاجتماع اعتبروا أن هذه الحوادث ماهى إلا سلسلة من الحوادث المسرحية التى تتعاقب الواحدة بعد الأخرى ، ولكنها لاتعتبر مادة خصبة لدراسة أى مجتمع من المجتمعات ، ولانواة تقوم عليها دراسة اجتماعية علمية . والحقائق التاريخية التى تفيد علماء الاجتماع فى دراستهم للمجتمع الإنسانى هى التغيرات التى حدثت تجاه تشكيل الأنظمة الاجتماعية ، وتجاه طريقة الحياة والمعارف والمعتقدات والأنظمة السياسية . وبذلك يكون الغرض من دراسة المجتمعات ، إنما هو محاولة لاستخلاص معنى هذه التغيرات . ولا يكفى من هذه الدراسة اكتشاف المعنى العام للتطور الاجتماعى ، بل يجب بجانب ذلك البحث فى التاريخ عن أدلة وبراهين تؤيد هذا التطور ، وهذا التغير .

وهناك اتجاه في نظرية « الدوافع » ، فكل نظرية من هذه النظريات تحاول أن تغلب شأن « دافعا » ، ثم تبادر بعمل قائمة من الحقائق ، لتثبت نظريتها ، ولكن بارتو لم يتبع هذا الاتجاه ، بل يحاول أن يثبت أن كل مجتمع عبارة عن جهاز من الموازنات بين قوى مختلفة . وقد يكتب البقاء لأى مجتمع طالما أن العلاقات بين هذه القوى تؤكد تماسكه المتواصل . وقد حاول بارتو من جانبه تحليل هذه القوى ، فذكر أن بعض هذه القوى اقتصادية ، ولهذا فهو تخرج عن إطار علم الاجتماع ، ولكى يبحث عن أهم القوى الأخرى ، فإنه يحاول جاعدا أن يكشف عن عدد معين من البقايا الثابتة للقوى تبعا لتنوع ظاهراتها . ويعتمد تطور المجتمعات على مقدار هذه القوى المختلفة ، ولكن قد يتنوع هذا المقدار نتيجة لظهور صور جديدة من التوازن على غير انتظار . وبذلك لا يمكن أن تكون بما سيكون عليه التطور الاجتماعى .

وقد أكثر بارتو من الأسئلات المنشأية التى جلبها عليه تفكيره المتناقض ليزيد من أهمية اختلاف وجهات نظره تجاه المجتمع مع المذاهب الكلاسيكية . ويطن على الملأ أمام الذين يعتقدون التقدم الثابت والمتواصل للديموقراطية أن حكم الأرستقراطيات حتى العنيفة منها قد دام بعض الوقت . وأما بالنسبة لهؤلاء الذين يعتقدون التقدم الأخلاقى ، فهو يحاول أن يبين عن طريق جمع بعض الحقائق المتناقضة ، أن الحرافات مازالت جزءاً من معتقدات الإنسان ، لأن الإنسان فى حاجة إلى أن يشعر بأنه مكبل فى أغلال عدد من المعتقدات ، حتى لو كانت غير مطابقة للعقل .

وبالرغم من الطابع « الميكانيكى » لمفاهيمه الاجتماعية ، فإن بارتو يعلق أهمية كبيرة على الاختلافات العنصرية للأفراد التى ينتج عنها

ظواهر تدرج الطبقات ، وعدم المساواة الاجتماعية . ويتضمن هذا التدرج ظاهرة « دورة النخبة الممتازة » ، أعنى التنقل المتواصل للأفراد الذين هم أحسن موهبة من الطبقات السفلى نحو الطبقات العليا ؛ وهذا التنقل قائم على « الإخصاب » المتميز . والطريقة التى تنتج عنها دورة « النخبة الممتازة » ، والتى تعتبر إحدى الخصائص التى تميز نماذج المجتمعات .

وقد حل م . جيني M. Gini النتائج الشديدة النوع لتذبذب التوازن الاجتماعى وبخاصة فى ميدان الاقتصاد . وأوضح أن بعض هذه التذبذبات ليس لها إلا نتائج وقتية أو محدودة جداً ، أما البعض الآخر منها ، فإنها تحدث تغيرات جذرية فى البنيان الاجتماعى ، وهناك تذبذبات أخرى تحدث تغيرات كلية ينتج عنها تنظيم جديد من أساسه للمجتمع وللعلاقات الاجتماعية .

مذاهب الجنس والاختيار

يرى أصحاب هذه المذاهب أن الاختلافات فى الحضارة وفى القوى لبعض المجتمعات تنوقف على المواهب الفطرية لكل جنس . ويترتب على هذه المواهب أن كل جنس معد سلفاً ليحتل مكانته التى لا بد أن يصل إليها بالضرورة الحتمية .

ونلس الإيمان بهذه النظرية والاعتماد فيها فى كل المجتمعات القديمة تقريباً .

فتتلا فى مجتمع القبيلة يعتقد جميع أفرادها أنهم مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بروابط الدم . وهم يعتبرون أنفسهم من سلالة جد حاكم أو بطل

عظيم . أو سلالة لإله ، أو سلالة لحيوان ، توتيميك Totémique (وهذا الحيوان هو الذى كانت تعتبره بعض القبائل البدائية أنه جد أو إله لها) . وكانت مثل هذه القبائل تحتقر القبائل الأخرى وتنظر إليها على أنها قبائل دنسة غير طاهرة ، وزنديقة ، ووضيعة .

ولكن بمجرد أن اتسع أفق العالم ، وانتقل من مجتمع ضيق الحدود ومن قبيلة تنسب إلى جد حاكم أو بطل عظيم ، ومن مجتمع النبلاء إلى شعب كثير العدد ، اصطدم أصحاب هذه النظريات بالتمايز بين اللغة والدين والحضارة والجنس فى مجتمع واحد أو فى شعب واحد . ولقد حدث هذا الأمر فى التمايز فى الجنس بين اليونانيين والبربر . أما الصينيون ، فقد ظلوا على ولائهم على هذه الأسطورة واستمروا يطلقون على أنفسهم أنهم من « أبناء الهون » ، أو من سلالة « مائة العائلة » .

وفى أثناء القرن التاسع عشر كانت الظروف التاريخية مهيأة لتوحى بمذهب تسلسل الأجناس وحتى ذلك الوقت كان العالم مقسماً إلى كثير من الحضارات الكبيرة ذات وسائل الإنتاج المتقاربة ، وكانت كل منها تفاخر الأخرى بعلو شأنها فى الميدان الدينى والأخلاقي والثقافي . فمثلاً ، الصين واليابان والعالم المسيحى والعالم الإسلامى كان ينظر كل منهم إلى الآخر على أنه عالم من البربر ومن الزنادقة .

ولقد شاهد القرن التاسع عشر الحضارة الأوروبية تخطو خطوات سريعة نحو التقدم ، على حين كان معاصرو الملك لويس الرابع عشر يتحدثون عن ملك الأتراك بأنه « أعظم ملك فى العالم » ، أما بالنسبة

لوجهة نظر المعاصر لعام ١٨٦٠ ، فقد أطلق على الأمبراطورية التركية اسم « الرجل المريض » وكانت الهند في القرن التاسع عشر مستعمرة ، والصين دولة هرمة واليابان مملكة هزيلة . وكانت معظم الحضارات التي تفاخر بنفسها تحنى الرأس أمام الحضارة الأوروبية .

وقد تبلورت هذه الظاهرة وانعكست آثارها في شكل مذاهب ، فقد نشأ عن ذلك نظرية جوينو Gobineau التي تحدثت عن عدم المساواة بين الأجناس البشرية . فالعامل الأساسي عند جوينو لتقدم المجتمع أو تخلفه هو العامل العنصري ، فعندما يتخلف أو يتدهور يرجع ذلك إلى أن تكوينه العنصري تغير نتيجة اندماج عنصرين معاً في شعب واحد . وهو يؤكد أن هناك أجناساً رفيعة ، وأجناساً « وضيعة » ، وأن معظم الأجناس غير قادرة أبداً على أن تتطور وتقدم نحو سلم الحضارة الإنسانية ، ووجهته في ذلك أن بعض الشعوب التي كانت تعيش في بيئة طبيعية مواتية ظلت على حالتها البدائية . وهو يعلن أن الأجناس الثلاثة (الأبيض والأصفر والأسود) لكل منها أصل يختلف عن الآخر . ومن هذا الاختلاف ، تنتج خصائص نفسية دائمة البقاء لا يغير منها غير اختلاط الأجناس . وهو لا يؤيد هذا الاختلاط ، لأنه من وجهة نظره وخاصة من الجنس الأبيض يهدد الطابع الأخلاقي والفردى للجنس البشرى بالانهيار والتخلف .

وكانت نظريات جوينو نقطة بدء لمبالغات شديدة حتى انتقلت من مرتبة كونها نظرية إلى مذهب سياسي مما أدى إلى انتشار الاضطرابات والثورات الدموية في العالم . وقد تكهن فاشر دى لابوج Vacher de Lapouge بتليذ جوينو في عام ١٩٠٠ بأنه بعد بضع عشر سنوات ،

سيقتل الناس فيما بينهم بالملايين من أجل اختلاف مقاييس مراتبهم .

وقد لاحظ بعض المفكرين أن تلك علامة محققة تدل على تمايز الأجناس . وقد انقسم الناس من وجهة نظرهم إلى نوعين : نوع تستطيل عنده الجمجمة (الطول أكبر من العرض) والنوع الآخر تضيق عنده الجمجمة (العرض أكبر من الطول) . وهم يعتقدون أن استتالة الجمجمة تدل على ما لصاحبها من مكانة كبيرة ، واستمر هذا الاعتقاد سارياً إلى أن اكتشف وجوده عند الجنس الأسود .

ومن ثم ظهر على مسرح الأجناس عدد معين من نظريات الاختيار ، وكانت هذه النظريات جميعها تملق أهمية كبيرة على العامل الوراثي نتيجة لتأثرها بمذهب دارون Darwin وكان لابوج Lapouge تلميذ جوينو يلقى المسؤولية على المبادئ الأخلاقية التي تقسح الطريق في المجتمع الحديث أمام بقاء الضعفاء . وبعث الوضعاء . وقد يتمخض عن الاختيار الاجتماعي الناقص انحدار المجتمع وانحطاطه .

وعلى العكس فإن أو آمون Otto Ammon الذي ينطلق من وجهة النظر هذه نفسها على منوال بيرسون Pearson ينتهى إلى نظرية متفائلة للتدرج الاجتماعي . فهو يقول إن جميع الأنظمة منذ الطفولة والمدرسة تقوم بوظيفتها كأنها حواجز لتقف سداً منيعاً أمام غير القادرين ، ولتفسح الطريق أمام ذوى الاستعدادات ليتعلموا وتقوم بتوزيع أعضاء المجتمع على حسب الكيف .

ولكن المفكر الانجليزي م . سوروكان Sorokin أوضح هذه النقطة نفسها في مؤلفه التحرك الاجتماعي Social Mobility ، وأكد أنه إذا كان

الامر كذلك فيجب على المؤسسات أن تقوم بهذا الدور ، لأن أى إيمان كلى فى فضائل الوراثة يتعارض بشدة مع هذه الصورة من الاختيار لذوى الاستعدادات فى المجتمع . ومن أجل هذا ، فإن نظام الطوائف الذى هو بمثابة المذهب الاجتماعى القائم على الاعتقاد فى الوراثة أضفى عاملا لا أهمية له .

وتتعارض نظريات الأجناس مع الإنسانية والمثالية فى المجتمع ، ومعنى هذا أن هذه النظريات تؤيد قضايا هيردر فى خاصية عدم انتقال الأرواح ، والثقافات الشعبية . وتبعاً لوجهات نظر هذه القضايا فإن الإنسانية ستظل محبوسة فى سلسلة من القدرات التى ينتج عنها اختيار إجبارى ، إما استمرار وجود عدم المساواة والفوارق عن طريق الخوف والرعب من اندماج الأجناس بعضها فى بعض ، وزيادة خطورتها على المجتمع الإنسانى ، وإما قبول اندماج الأجناس والانغماس فى تدهور والمخطاط فى المجتمع بشكل لا يمكن علاجه فى يوم من الأيام .

وأخيراً فإن المفكر الاجتماعى جالتون Galton انتهى إلى نتائج مختلفة فى مجموعها رغم فروقها الدقيقة جداً ، وذلك بعد عمل ملاحظات استنفدت منه كل صبر واحتمال ؛ فهو يرى أن الاستعدادات الفطرية موزعة بين أعضاء المجتمع واحد أو جماعة واحدة على حسب قوانين نظرية الاحتمالات وقد ذكر بعض المفكرين الاجتماعيين أن هناك تشابهاً كبيراً بين صراع القوى فى العالم الحيوانى وبين صراع القوى فى المجتمعات الحديثة ، ولكن البعض الآخر ، ينكر هذا التشابه ويستبعده لوجود فوارق واضحة بين هذا وذاك . فكلما أصبحت المجتمعات الإنسانية أكثر اتساعاً ، وأكثر

تفكيراً ، وكلما تعقد تقسيم العمل ، فإن عوامل التنظيم . أعنى عوامل المساعدة والتعاون تغدو أكثر أهمية .

أما فيما يختص بالنتائج الجماعية للحرب ، فكثيراً ما يلابسها تعقيدات وتناقضات . وقد يحدث أن يتكاثر عدد الجنس المنتصر أكثر من الجنس المهزوم ، وخاصة في البلاد التي يتزوج فيها الرجل عدة نساء ، أو المرأة عدة رجال ، وكذلك في الجنس الذي يمارس خطف النساء والذي ينج عنه حينئذ امتزاج الأجناس بعضها في بعض بصورة شديدة . وأحياناً يحدث العكس في البلاد الأخرى ذات الحضارة ، فإن الجنس المهزوم الذي ينتكس إلى طبقة أسفل يأخذ مكانة الجنس المنتصر شيئاً فشيئاً عندما يقل تكاثر الطبقة الموجهة خصوصاً في المجتمعات التي لا يسمح فيها بالزواج إلا من امرأة واحدة .

المدارس الأنثروبولوجية والأنثروبولوجية

كان توسيديد Thucydide وفيكو Vico من أوائل المفكرين الاجتماعيين الذين علقوا أهمية كبيرة على العلوم الاجتماعية في دراسة المجتمعات البدائية .

في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اهتم المفكرون الاجتماعيون بدراسة قصص الرحلات ودراسة أخلاق الشعوب القديمة . وقد نعت الأفريقيين البدائيين والأمريكيين وسكان المحيطات في العصور الوسطى حتى القرن السادس عشر بأوصاف فيها كراهية واشتمزاز لمجتمعاتهم . ثم أتى بعد ذلك ، رد الفعل المضاد في القرن الثامن عشر ، وكان هذا انتصاراً

لأسطورة « المتوحش الطيب » الذى تحدث عنه جان جاك روسو
وشاتوبريان Chateau briand .

وفى القرن التاسع عشر ، بدأت دراسات موضوعية للجماعات
البداية . فقد اكتشف شيتافشيتا كيفية تنظيمها ، وجهاز القبائل ، وفروعه
واختلاف مفاهيم القرابة الإنسانية .

وقد وضع لدى مفكرى القرن التاسع عشر التشابه بين التنظيمات
البداية ، وبين تنظيمات أصول الإنسانية . وقد أشار « ماسكراى
Masqueray إلى التشابه كذلك بين تنظيمات البربر فى شمال أفريقيا وبين
تنظيمات المدنية اليونانية البداية . وفى مؤلفات شهيرة لجيمس فريزر
James Fraser ، ذكر أن بعض التنظيمات البدائية تحولت شيتافشيتا حتى
أصبحت تنظيمات لشعوب أكثر مدنية .

ولكن تفسيرات جيمس فريزر كانت قائمة على نظام فى التفكير يتشابه
عند جميع الناس فى جميع العصور ، أما من جهة نظر ، ل . لى برهل
L. Lévy-Bruhl فقد كان فرضه على عكس ذلك حيث يقول : « إن
نظام الفكرة البداية يختلف عن نظام الفكر عند رجال هذا العصر ،
ولا يمكن هذا الاختلاف فى معتقداتهم وتفسيراتهم للعالم المتغير لحسب ،
بل وفى طريقة التدليل على الأشياء كذلك . وأصل المطابقة التى تقلب على
طابع تفكير هذا العصر تمارض طريقة المشاركة عند البدائيين ؛ فقد يكون
الإنسان هو ذاته أو شيتا آخر . وتمتد الذاتية الإنسانية فى كل توابعها
ويمكن المرء أن يؤثر عليها عندما يمتلك طيفها أو بعض أجزاء من جسمها . »
وهذا يؤدى بنا إلى قوانين السحر ، فيتمثل السحر كأنه انحراف

« للتكنيكية ، بل هو « تكنيكية كاذبة » ، وعلم كاذب ، فقد تتفق تقريباً طرائقه مع قائمة « السفسطة » كما يحددها المنطق الكلاسيكي ، وأهم بنود هذه القائمة هي « قانون الاتصال » ، « قانون التشابه » . وقد أشار لويس فيبر Louis Weber إلى كيفية أن السحر كان يمثل أقصر الطرق ، وتفهم الأمور يتكون على الأخص عن طريق التشابه مع العلاقات الاجتماعية ، وإمكانات تحضير الأرواح عن طريق التخاطب والرسم والكتابة .

وينبغي لدراسة طبائع السلالات البشرية أن نضيف عليها دراسة العادات الشعبية (الفولكلور) . والدور العام الذى يقوم به هو تبيان ما تختلف عن آثار العقلية البدائية والسحر فى الشعوب المتمدنة ، وبخاصة بين سكان الريف .

تجديد علم الاجتماع المثلثى

يتميز هذا التجديد بطابعه الحيوى أو « الديناميكي » ، فيقول فوييه Fouillée : إن آملنا تحتوى على أفكار وآراء « محركه فاهرة » ، idées-forces ستؤثر إن أجلا أو عاجلا على الحقيقة وستساعد على تغيير العالم . أما كارل ماركس فقد أعطى ما أطلق عليه اسم « الدافع الذاتى » أهمية كبيرة وكان جورج سورل Georges Sorel أحد الداعين إلى مثالية « العنف » ، وكان يعلن أنه يتحتم على التنظيم المهنى أن يحل محل الدولة التقليدية ، ولكى يحدث هذا ينبغي على البروليتاريا أن تتصف بالفضيلة وبالأستعداد للكفاح . وقد شاءت سخرية الزمن أن يكون موسيلينى هو تليذه وأن يقوم بما قام به باسم الشعارات التى أطلقها سوريل .

ولم يفت برجسون Bergson أن يتوج أعماله الفلسفية برسالة عن دراسة المجتمعات ، فهو يعتقد أن المجتمعات في أية لحظة متحركة بوساطة مثل أعلى مسيطر عليها . ولكن هذا المثل الأعلى يتغير ، لا عن طريق المصادفة ، ولكن عن طريق الحركة الدائمة في جميع الاتجاهات . وعندما يستنفذ جهاز أو نظام محتواه المنطقي ، أو عندما يحقق نفسه في المنظمات إلى درجة تخرجه عن طابعه الأصلي أو مثله الأعلى الذي رسم له ، وأن يثير مقاومات عنيفة ، ما يلبث أفراد هذا النظام أن يتخلصوا منه ، ويختاروا لأنفسهم مثالا أعلى مضادا ، وهذا ما يطلق عليه « قانون الهذيان المزدوج » ، ويفسر هذا القانون حركات التاريخ الواحدة تلو الأخرى ، وظهور أنظمة من المعتقدات والمجتمعات التي تزج كل منهما الأخرى من أمامها بالتوالي . ولكن برجسون يعتقد اعتقاداً راسخاً في التطور وأنه خالق ومبدع . فكل الظواهر سواء أكانت نفسية أم اجتماعية أم تاريخية غير قابلة للرجوع إلى الوراء وهي كذلك — للأسباب نفسها — غير ممكن التكهّن بها . وهو لا يعتقد إطلاقاً في « القدرية » ، بجميع صورها المختلفة ، فهو يقول : « إن مستقبل الإنسانية سيظل غير محدود المعالم لأنه يعتمد عليها » .

ويقسم برجسون المجتمعات إلى جماعتين رئيسيتين : المجتمعات المفتوحة والمجتمعات المغفلة .

ففي المجتمعات المغفلة ، يقف القائمون بالامر فيما بينهم غير مباينين ببقية أفراد مجتمعهم على استعداد للصراع أو عن الدفاع عن أنفسهم ، يجبرين على أن يتخذوا لأنفسهم طريق الكفاح ، وهذا هو طابع المجتمعات البدائية المحصورة والمعزولة . وهو يشير إلى مجتمعات الحشرات

التي لها خصائص مشتركة مع المجتمعات البدائية بقوله : « يكون موقفها في نهاية إحدى الخطتين الهامين من التطور الحيواني ، كما أن المجتمعات الإنسانية يكون موقفها في نهاية الخط الآخر » .

أما المجتمعات المفتوحة فهي المجتمعات التي تحتضن في الأصل الإنسانية كلها ، ويكون الاختلاف فيما بينها في الكيف لا في الكم .

وإزاء النظريات التي تحدد عمل الأفراد وأفكارهم بمكانتهم في المجتمع يذكر برجسون « أن هناك نبلاء تعاونوا على إنجاح ثورة ١٧٨٩ التي ألغت امتياز النسب والحسب الذي كان يعطى الفرد في المجتمع مكانة عظيمة ، ... » وأن القفزات الكبرى التي كانت موجهة ضد عدم المساواة أتت من أعلى لا من أسفل » .

وقد رد برجسون على إميل فاجيه Emile Faguet الذي كتب يقول : « إن الثورة اندلعت لأن الشعب كان يموت جوعاً ، بقوله : « يجب أن نعرف لماذا رفض الشعب عند لحظة معينة الخضوع للموت جوعاً ؟ » .

البَابُ الثَّالِثُ المواقفُ الحاضرة لعلم الاجتماع

الفصل الأول التباين بين المذاهب والنظريات

يبدو لنا اليوم أن علم الاجتماع قد دخل مرحلة جديدة ألا وهي المرحلة العلمية . وقد أعقب المرحلة القديمة للأنظمة الكبرى والنظريات الكثيرة التي كانت تفسر الحياة الاجتماعية بحركة واحدة أو بعمل دافع واحد ، مرحلة التجزئة . وبمجرد أن تعدى الإنسان التشابه الكلي في المجتمعات البدائية ، أضحت الحياة الاجتماعية مادة معقدة تتشابه فيها الأعمال المتشابهة لكثير من الدوافع . وهذه هي إحدى العقبات للعلوم الاجتماعية . وتعمل الدوافع المختلفة بقوى شديدة متنوعة أشد التنوع على حسب العصور والظروف ، وتبع ما نطلق عليه في كلمة واحدة اسم « اللحظة التاريخية » . وقد أراد رواد علم الاجتماع أن يبدؤوا « بالتركيب » . وفي إحدى المناقشات الشهيرة لامييل ليفاسير Emile Levasseur عن علم الاجتماع أنهى حديثه بقوله : « أنصح علماء الاجتماع بالاعتدال » .

وقد حافظ علم الاجتماع على هذا النصح من قبل هذا الأخصائي في الأبحاث الإحصائية . وقد بدأ علم الاجتماع بخطوات إلى الأمام بكل حكمة واتزان ، ويصنف ويجزئ ويحلل كذلك .

وأول هذا التمايز الذي ينبغي علينا أن نوضحه بكل عناية في جميع العلوم وبخاصة في علم الاجتماع هو الاختلاف بين المذاهب والنظريات . فحتى العصور الوسطى ، كان من الصعب على الفلسفة أن تتخلص من الديانة التي كانت بمثابة الخادمة لها ، وكان علم الاجتماع معرضاً على الدوام

للخضوع لتيارين : التيار الفلسفي والتيار السياسى . والفضل الأكبر الذى يعزى إلى أوجست كونت أنه أبعد الدراسة الاجتماعية والتفكير الاجتماعى عن الميتافيزيقيا ، ولكن ظهر أنه من الصعوبة بمكان تحرير علم الاجتماع من تأثير السياسة المقنع أو المكشوف .

ومن الواضح أن المرء لا يستطيع أن يطالب السياسة بالتوقف عن التدخل حتى يتم تشكيل علم اجتماعى قائم على أساس واقعى من الحياة الاجتماعية الخالصة للإنسان ، وبعيد عن أى مؤثر خارجى أو داخلى . ولا يغرب عن بالنا أن الانقلابات السياسية هى التى حركت أو نهبت التفكير الاجتماعى ، وهى التى أثارت حيوية الفكرة .

ولم تحاول الاتجاهات السياسية المختلفة أن تندمج فى علم الاجتماع إلا عن طريق انحراف المذاهب ، فكل صاحب مذهب من هذه المذاهب لم يعبر إلا عن جميع آرائه واختباراته الشخصية . فالأداة العلمية لكل مذهب تقوم على إثبات حقيقته بالبراهين الثابتة ، وبالحقائق المؤكدة . فكل مذهب اجتماعى تتوافر فيه هذه الأمور يكون صالحا للتطبيق ويصبح بجانب ذلك مذهباً تشريعياً .

أما النظريات ، فهى تحتوى على ترتيب الحقائق وتفسيرها بوساطة مجموعة من الفروض ومن المبادئ القابلة للنقاش عندما تظهر حقائق جديدة لا تتفق معها . وعلى ذلك فالنظرية تشارك العلم من حيث التعميم والتركيب ، المحدود .

ويؤدى الفرض دوراً آخر : دور إثارة البحث الذى تقدم له اقتراحات . يمكن ، إثباتها والتحقق منها بوساطة البحث أو التجربة .

مفكر اجتماعي ولد في مدينة اينال Epinal في شرقي فرنسا .
وعندما أتم دراسته الثانوية ، تقدم لمسابقة الدخول في مدرسة المعلمين
العليا بباريس Ecole Normale Supérieure وتلذذ فيها على كبار
الأساتذة . وبعد أن تخرج في هذه المدرسة اشتغل بالتدريس في المدارس
الثانوية . وقد أتيحت له فرصة الذهاب إلى ألمانيا في إجازة علمية . وقد
هيأت له هذه الفرصة دراسة نظمها وأساليبها ودراساتها العلمية . وقد
انكب هناك على دراسة علم الاجتماع على أيدي أساتذة كبار أمثال
« فاجنر ، و « شمولر ، و « فونت ، ويقال إنه تأثر كثيرا بأفكار هؤلاء .
أكثر من تأثره بأفكاره أوجست كونت ، . ولما عاد من ألمانيا ، خصص
نفسه لدراسة علم الاجتماع ومما ساعده على ذلك أن كلية الآداب بمدينة
يوردو بفرنسا أنشأت كرسيًا لمادة علم الاجتماع ، فعهدت إليه بالإشراف
على هذا القسم . فبدأت عنايته تتضاعف في معالجة بعض المشكلات
الاجتماعية . وكان مما يميز دركهم عن غيره من المفكرين الاجتماعيين
أنه كان يجمع بين تدريس علم الاجتماع والتربية .

وكانت أول مشكلة عالجها وألف فيها رسالة نال بها درجة الدكتوراه
في السوربون مشكلة « تقسيم العمل الاجتماعي » ، ثم ألف كتاباً عظيماً
رفعه إلى مصاف كبار الأساتذة وهو « قواعد المنهج في علم الاجتماع » ،

ثم انتقل من بورردو وأصبح أستاذاً لعلم الاجتماع في عام ١٩٠٢ في « جامعة السوربون »^(١) .

ويعتبر إميل دركهم أحد الذين ساعدوا مساعدة كبيرة على إضفاء خصائص العلم الحقيقي على علم الاجتماع . وبفضل تأثيره الشخصي الف حوله كثير من تلاميذه وأسس مدرسة ساعدت بقوة على تقدم معرفة الظواهر الاجتماعية .

وتمثل أعمال دركهم مجهوداً ضخماً في إقامة أساس علمي ارتكز عليه علم الاجتماع ، وفي سبيل هذا الهدف ، أنشأ مجموعة من المعاني الشاملة لهذا العلم ، وحدد تحديداً قاطعاً طرائقه في البحث والتفسير . وبهذا حصل علم الاجتماع « الدركيمي » ، على مكتسبات كثيرة ومفيدة نذكر منها :

١ - الحقيقة الاجتماعية : يقول دركهم : « إنه ينبغي على علم الاجتماع أن يعد طرائقه العلمية ، وألا يقوم بدراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق المصادفة ويتحتم عليه بعد أن يضع في الأصل « نوعية » المجتمع تحديد الحقيقة الاجتماعية » .

ويقول دركهم : « إن الحقيقة الاجتماعية تعرف بخاصيتها الواقعية . وفي الواقع ، أنها لا تعتمد علينا في تغييرها إلى حسب هوانا ، بل هي تمثل حقيقة خارجة عن الفرد . وفي مواجهة الفرد ، تعرف الحقيقة

(١) للترجم .

الاجتماعية عن طريق القهر . ويمكن دراسة الحقيقة الاجتماعية موضوعياً ،
شأنها في ذلك شأن دراسة للأشياء . . ويقول دركهيم : « إن الشيء
قد يتعارض مع الفكرة ، كما أن ما يعرفه الفرد خارجياً قد يتعارض مع
ما يعرفه داخلياً . »

(٢) التمايز بين أحكام القيمة وأحكام الحقيقة : تشمل أحكام
الحقيقة منطوق بعض البديهيات البسيطة مثل « الثلج أبيض » . أما أحكام
القيمة فتشتمل على تقدير ، وهذا التقدير هو الذي يحدد هدفه في الحياة
الاقتصادية ، وقد يصبح هذا الهدف لائماً له بدون هذه الحياة ،
ومثال ذلك ، أنه لن يكون هناك قيمة اقتصادية لسلعة من السلع دون أن
يكون لها حق التبادل مع سلعة أخرى ، وأن يكون لها سوق ، وكذلك
القيمة الأخلاقية : فعندما نقول « خير خير » ، فالمقصود من ذلك معنى
مضاف مشتق من الحياة الاجتماعية .

(٣) معيار الإكراه : كل شيء يثير إلزاماً أو إكراهاً شيء اجتماعي
صرف ، وهذا الشيء الإلزامي إما أن يكون إيجابياً أو سلبياً . وقد ينتج
هذا عن مقاومة مادية ، مثلاً عندما نرغب في شراء شيء زيادة عن قيمته
المستحقة مهما كان العقاب الملزم ، وعندما لانتهم باتباع ما جرى عليه
العرف مهما كانت عقوباته الشديدة ، وعندما نضطلم بقوانين البلد
أو قواعد الأخلاقية .

وأما من حيث أفراد المجتمع فإنهم يحملون في أنفسهم هذا الإكراه

أو الإلزام . وقد يظهر في داخل نفوسهم تحت صورة عدم الارتياح والملل وتبكيك الضمير .

(٤) تقسيم العمل : كان آدم سميت يعتبر تقسيم العمل الحقيقة الرئيسية للاقتصاد . وبين دركهم أن تقسيم العمل يحدد كذلك الأخلاق والقانون وبقدر ما تزداد « الكثافة الاجتماعية » تزداد من ثم حدة تقسيم العمل ، وعندما يحدث هذا التطور في المجتمع فإن ميدان قانون العقوبات الذي يوصف بالعقوبة الرادعة ، سينكشف في سبيل ظهور القانون المدنى الذى يوصف بالعقوبة المصلحة ، وبذلك ، تنجى الطبقة المهنية إلى أن تحل محل الطبقة الارستقراطية أو العسكرية التى تحتل مكان القيادة دائما . ويحل العقد محل القانون . وقد أثبتت الأحداث الأخيرة وجهة نظر دركهم كما كذبت وجهات نظر سبنسر . Spencer

وهى تبدو أنها تشير إلى إمكانية تنظيم صناعى ذى سلطة قائم على العمل الإجبارى وتسلسل ذى طابع عسكرى ، أعنى الطابع الذى نحل فيه العقوبات الجنائية (السجن والنفي والتحقير) محل العقوبات الاقتصادية (التأجيل . والغرامة ، والحرمان) .

ونرى أن بوجليه Bouglé عندما طبق طريقة دركهم يؤكد أن أفكار « المساواة » لم تنتشر إلا فى المجتمعات الكثيفة بالسكان وبخاصة فى المدن الكبرى .

ونحن لا يمكننا التحدث عن علم الاجتماع إلا عن قوانين أو مؤثرات

تقريبية، ونرى أن القوانين الاجتماعية لها هدف محدود في المكان والزمان
وأى مفكر يحاول أن يضع قانونا في علم الاجتماع ينبغي عليه أن يجيب
عن هذه الأسئلة : أين ؟ ومتى ؟ وفي أى الشروط ؟

وقد بدأنا بعرض للواقف الحاضرة لعلم الاجتماع على حسب وجهة نظر
دركهيم ، وهو يعتبر أول من أبعد علم الاجتماع عن الدين وعن الفلسفة
وعن السياسة . وربما قد ذهب أبعد من ذلك ؛ فلشدة تحمسه البالغ ، أراد
أن يغير من وظائف علم الاجتماع ، وأن يحاول أن يجد فيه التفسير النهائي
للدين ، والفلسفة . وقد انتهى إلى القول بأن درجات الفهم هي الإشعاع
للتراكيب الأولية الاجتماعية .

الفصل الثاني المعرف كحاضر لحضام الاجتماع

كان التفكير في المسائل الاجتماعية أيام الاغريق يتضمن معرفة عميقة بالتاريخ وحياة المجتمعات ، وكان يتضمن بجانب ذلك معرفة بمعتقداتهم الدينية والفلسفية وبالأساطير ، والايديولوجيات التي تعبر عن أعمالهم وأفكارهم وقوانينهم وتنظيماتهم السياسية ، وحياتهم الاقتصادية . وعلى ذلك ، فقد ظهرت الفلسفة الاجتماعية كأنها تتويج لكل هذه الأعمال وكأنها نتيجة لحصيلة معارفنا السابقة .

ونجد هذا الوضع « الموسوعي » للفلسفة الاجتماعية عند جميع المبشرين بهذا العلم . ونحن نعرف المسكاة التي كان يحتلها التفكير في العلوم الطبيعية والطبية ، وقد استرعى أوجست كونت الأنظار إلى هذا الوضع الجديد لعل الاجتماع بتصنيفه العلوم وبمنهجه في الفلسفة الوضعية .

ومن وجهة أخرى ، فإن تاريخ علم الاجتماع يشير إلى أنه من الصعب علينا تصور وجود مفكرين اجتماعيين خلص . ونحن نرى هؤلاء ملزمين في دراستهم بالاستناد إلى حصيلة علم أو أكثر من العلوم الخاصة ، وقد يكون أحد هذه العلوم تشريعياً ، والآخر اقتصادياً أو نفسياً .

أما من جهة هؤلاء الذين أرادوا برغم كل شيء إنشاء علم اجتماعي مستقل تمام الاستقلال فإنهم قد اتجهوا إما إلى نظام كله تعاليم جبرية ، وإما إلى نظريات شكلية أو خداعة إلى حد ما ، مثل نظريات فون فيز

Von Wiese

فنون فيز يبنى وجهة نظره على أساس تأثر كل فرد بالأفراد الآخرين وينتج عن هذا التأثير « مسافة اجتماعية » تختلف عن المسافة المادية التي تفصل بينهما . وتعتبر هذه المسافة الاجتماعية عن مدى التقارب والتوافق الاجتماعي بين الأفراد أو تعبر عن مدى التباعد والتفوق بينهم . ويعتبر فنون فيز أن الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع هو دراسة شبكة المسافات أو الأبعاد الاجتماعية التي بين أفراد المجتمع . ويفسر المسافات أو الأبعاد الاجتماعية بنوعين من العمليات الاجتماعية .

النوع الأول : التكيف الاجتماعي والتشيل الاجتماعي ، وهي عمليات تقارب وتواصل واندماج وتوافق .

النوع الآخر : يتكون من عمليات أبعاد وانفصال ومنافسة وتصادم . وقد أوضح لنا فنون فيز أربع صور من الأشكال الاجتماعية :

(١) الجماهير المؤقتة : ويمتاز هذا الشكل بعدم استقرار العلاقات الاجتماعية بين الأفراد .

(٢) الجماهير المجردة : ويمتاز هذا الشكل بعدم خضوع الجماهير لعلاقات اجتماعية منظمة أو ثابتة وكأنها تمتاز باستمرارها .

(٣) الجماعات المنظمة : ويمتاز هذا الشكل باستمراره وتواصله النسبي والتي تمتاز فيها العلاقات الاجتماعية بمبدأ التخصص وتوزيع العمل ، والتي سيكون بين أفرادها تقاليد مشتركة وتقصر بينهم المسافات الاجتماعية .

(٤) الهيئات المجردة : ويمتاز هذا الشكل ببقاء واتساع نطاق المسافات والأبعاد الاجتماعية بين الأفراد المكونين لها مثل الدولة التي تمثل

السلطة السياسية والكنيسة التي تمثل السلطة الدينية والطوائف المهنية التي تمثل السلطة الاقتصادية وهكذا^(١) .

وسواء أردنا أم لم نرد ، فقد كرس علم الاجتماع العام نفسه ليطل فلسفة على نطاق واسع لعدة علوم اجتماعية على حسب تعبير رينيه ورمز René Worms ، لأنه يعتبر مقدمة وخاتمة مشتركة لمجموعة من العلوم الاجتماعية . والسبب في ذلك كما يقول بوجليه Bouglé أن علم الاجتماع العام يستحيل عليه « أن يبدأ إلا عند ما تنتهى بعض العلوم الأخرى » وينحصر دوره في التحليل والتفسير واستخلاص بعض وجهات نظر أو قوانين عامة من حصيلة العلوم الأخرى بقدر الإمكان، وإذن فهو لا يمكن أن يمثل دور العلم الشكلي . بل ينحصر دوره في إقامة تصنيف عام وإعداد « مسلمات » ملبوسة وحقائق . لكن لا يمكن لهذه الحقائق أن تنسب إليه إلا عن طريق العلوم الاجتماعية الخاصة . وقد يؤدي أى مفهوم آخر لعلم الاجتماع إلى أن يصنع منه إما جهازاً خالصاً من التعليم ، وإما نوعاً من التفكير الذى يعمل في الفراغ أى التفكير النظرى . ومهما يكن فإن علم الاجتماع أضحي علماً بعيداً كل البعد عن التأمل النظرى .

وكان دركهم يلاحظ في « القواعد » أنه يستحيل مادياً على أى مفكر أن يمتلك معرفة كلية لجميع العلوم الاجتماعية الخاصة ، ويتطلب هذا الموقف الإلمام بالتقدم الذى أحرزته هذه العلوم ، إذن ينبغى على علم الاجتماع ألا يتراجع أمام هذا العمل العقيم الذى يحتوى على عمل ملخص لجميع العلوم الاجتماعية الأخرى . وفروضها ، وأبحاثها ، واكتشافاتها .

(١) للمزيد

وأهم ما في طريقة علم الاجتماع هو طريق المقارنة ، المقارنة بين المجتمعات بعضها وبعض ، وبين مختلف منظماتها ، وينبغي عليها كذلك مواجهة جميع الأساليب والطرائق المختلفة التي تستخدمها .

وتحمل هذه الطرائق قواعد للنظام العام الذي يمكن المرء أن يعتبر هذه القواعد مشتركة لجميع العلوم الاجتماعية ، ولكن هناك كذلك طرائق نوعية ، تختلف كل واحدة منها عن الأخرى : فمثلا طريقة دراسة علم السلالات البشرية وطبائعها Ethnologie تختلف تمام الاختلاف عن طريقة علم الإحصاء . والسؤال هو أن نعرف : إلى أي حد تستطيع هذه الطرائق النوعية أن تتدحج معا ، وأن تتعايش معا ، وما الهدف ، والمكان الصحيح لمفهوم القانون في كل ساحة علمية ؟

وننظر أمام أعيننا أهمية منهج الكشف عن مشكلات هذه الطريقة عندما نعرضه للدراسة إحدى هذه الوظائف الكثيرة الأمدد أو المنظمات المتجانسة تقريبا التي نلصقها في كل المجتمعات المختلفة ، وفي كل العصور ، مثال ذلك : الأسرة أو الحرب ، فكل مشكلة من هذه المشكلات لها ما يبررها من ناحية جغرافيتها الإنسانية ، وتحليلها الإحصائي . وواتنولوجيتها ، وتاريخها وأدبها المقارن ، وتاريخ مذاهبها وأفكارها ، لأنه كما يقول مارسيل موس Marcel Mauss لا توجد إلا حقيقة واحدة وهي الحقيقة الكلية . وهذه الحقيقة الكلية هي التي يجب أن تحلل وأن تجزأ على حسب المبدأ الديكارتي .

وفي دراستنا عن الحروب ، حاولنا أن نطبق هذه الطرائق المختلفة الواحدة تلو الأخرى للأشكال الكثيرة لهذه الظاهرة التي لا تتغير أساساً .

وتحتوى طريقتنا فى دراسة الحروب على أن تخضع تقاريرنا وأبحاثنا تبعاً لقاعدة و الموضوعية المتناقضة .

(١) الوصف الخارجى الخالص البسيط ، وهذا الوصف يجيب عن السؤال الآتى : ما الذى يحدث ؟ وكيف تصور الحرب ؟ ثم يأتى بعد ذلك التعداد الإحصائى عند ما يكون ممكناً ، وعلى ذلك نحدد الخطوط الأولى لأصل نشأة الحروب .

(٢) ثم نمضى من ثم إلى درجة أخرى من الموضوعية أقل من الأولى تنصف بعناصر نفسية ، وهذه الدرجة عبارة عن عرض وتصنيف لمتخلف نماذج المبررات والدوافع التى يقدمها منشئو الحروب أعنى هؤلاء الذين يقررونها ويضعونها .

(٣) ثم تأتى بعد ذلك الشروح المحدودة أعنى عرض أفكار واضعى النظريات السياسية والمؤرخين والاقتصاديين الخاصة بسلسلة من الصراعات المسلحة ، أو بشرح إحدى الصور الخاصة بالحرب .

(٤) وأخيراً ، مذاهب النظام العام مثل مذاهب رجال الدين والفلاسفة والأخلاقين .

وتحتوى هذه التصرفات ، وهذه الآراء بالنسبة للفكر الاجتماعى على حقائق صالحة للملاحظة والتى يتحتم دراستها موضوعياً . وأهميتها كبيرة جداً فى الدراسات الاجتماعية فضلاً عن الآراء المتغلبة ، سواء أكانت آراء صحيحة أم وهمية تؤثر بدورها فى الحقيقة لأنها تترجم بدون شك عن نفسها .

ويمكن تلخيص هدف علم الاجتماع في النقاط الآتية :

- (١) دراسة الأنظمة الاجتماعية والعناصر المشيدة لها ووظائفها .
- (٢) دراسة الظروف التي تطورت فيها بعض التنظيمات الاجتماعية
- (٣) مقارنة و النتائج التي حصلنا عليها عن طريق العلوم الاجتماعية .
الخاصة ، .
- (٤) دراسة الاتصالات بين هيكل المجتمعات ، والأنماط ، العقلية
للأفراد الذين يكونون هذه المجتمعات (وهنا تؤدي السيكولوجية
الاجتماعية دوراً هاماً) .
- (٥) دراسة العوامل التي تساعد على حدوث تغييرات في الأنظمة
الاجتماعية .

الفصل الثالث علم الاجتماع الثابت «الستاتيكي»

وهناك تمايز واضح بين علم الاجتماع الثابت ، الستاتيكي ، وعلم الاجتماع التطوري ، الديناميكي ، كما اقترحه أوجست كونت ، وفي الأصل ، ينبغي على علم الاجتماع الثابت أن يدرس المجتمعات في لحظة معينة ، أو كما يقول كونت في المكان . وإذن فإن عمله «وصفي» وبذلك ينحصر عمله في دراسة التنظيمات الاجتماعية وتنوعها . أما علم الاجتماع التطوري فيدرس التنظيمات الاجتماعية في «الزمان» فقط ويحلل ويفسر متغيراتهما وتغيراتها .

ولا يستطيع علم الاجتماع الستاتيكي إلا أن يكشف عن ثبات نسبي ، لأن حياة المجتمعات تتضمن عدة سلاسل متشابهة من حركات دورية غير متساوية ، تلك التي تتصادم معاً في جميع الاتجاهات . ويتكون الإنتاج الاقتصادي وتبادل السلع والحياة ذات الفصول الأربعة والحياة السياسية والدينية من التكرار المنظم للدورات . وتكرر كل هذه الظواهر بانتظام في «الزمان» ودورتها عنصر من العناصر المشيدة للنظم الاجتماعية . وعلى ذلك فإن الحياة الاقتصادية توصف بأنها دورات تقوم على تنظيم الإنتاج الزراعي من وقت البذر حتى وقت الحصاد ، وعلى هذا المنوال ، يسرى الشيء نفسه على الصناعة وعلى تداول السلع والنقود ، وتسلسل بعض الظواهر الدورية غير المعروفة تماماً لدينا وللمدة الطويلة ذاتها على المجتمع مثل ظاهرة الأزمات الدورية للإنتاج الزائد وانخفاض الأسعار .

ولنتحدث الآن عن حياة المنظمات : تحتوى التظاهرات الرئيسية للمعتقدات الدينية على احتفالات للعبادة دورية ، وهى غالباً ما ترتبط بنظام كوفى مثل نظام الفصول ، أو ظروف حياة الأفراد . فالولادة وقبول الشاب كعضو فى المجتمع ، والزواج والموت ، كل ذلك يؤدى إلى حفلات ذات طابع دينى خاص . ومثل هذه الحال نجد نظيرها فى الحياة السياسية : فوصول الرؤساء إلى كراسى الحكم ، والانتخابات ، والخدمة العسكرية واجتماع المجالس النيابية لها كذلك احتفالات دورية . ويمكن القول بأن كل الفرص الملهمة التى عن طريقها تقام وتجدد الاتصالات بين أعضاء المجتمع الواحد مثل الأعياد ، والعبادات والأسواق الخ . . . لها كذلك طابع دورى .

وقد نصيف إلى هذا ظاهرة الحرب ، فقد كشف بعض المفكرين الاجتماعيين أخيراً عن دورات تاريخية أعنى التكرار المنظم أو الدورى لبعض الحوادث أو لبعض المنظمات .

وأهم مظهر لهذه الدورات إنما هو تأثيرها الفعال على نفسية الأفراد ؛ فقد يحدث فى فرصة الاحتفالات ، سواء منها الدينية أو السياسية أو العسكرية اختلاط غريب من الإلهام الجماعى ، ومن الإخلاص ومن الحالات النفسية المتجانسة بين الأفراد . فالاجتماعات والاحتفالات فرض للسرور والأحزان والخوف الجماعى .

الهَيَاكِلُ الاجتماعية

ودراسة الهياكل الاجتماعية تتطلب أولاً دراسة الصورة العامة للجماعات ووضعها الجغرافى ، وحالة توزيعها فى المكان ، وخصائصها

سكانها . ومن الأهمية بمكان دراسة مختلف الصور التي تمثلها هذه المجتمعات الإنسانية . وينبغي علينا حين دراستها أن نفحص الحالة التي أصبحت عليها بعد أن جزأت نفسها أو انقسمت فيما بينها ، وقد اقترحت عدة تقسيمات لهذه الدراسة الاجتماعية .

والواقع أن دراسة الهياكل أو التركيبات الاجتماعية موزعة بين عدة علوم اجتماعية وهي الجغرافية الإنسانية ، وتحليل النظم الاقتصادية ، واجتماعية الأسرة ، والقانون الدستوري ، والجغرافية السياسية ، وعلم اللغات ، وعلم توزيع السكان .

العقليات أطرومحتويات

وتحتوى العقليات على منظمات عقلية حقيقية لها اتصال بالمنظمات الاجتماعية ، وتتضمن دراسة العقليات وتنوعها المشكلة الأساسية للنفسية الاجتماعية ، وأكثر من ذلك ، فهذه المشكلة تقوم على تحليل علم الاجتماع من جميع نواحيه ، لأن جميع الظواهر الاجتماعية تنعكس وتعبّر عن نفسها في أفكار أصحاب هذا العلم . وتوضح هذه العقليات كيف أن الحالات الاجتماعية عاشت ، وترجمت ، وأحس بها أفراد المجتمع ؟ وقد شعر أوجست كونت بأهمية المشكلة ، فكل حالة من الحالات الثلاث التي سبق شرحها عند التحدث عن أوجست كونت تمثل عصرا من عصور التاريخ التي مرت بها العقليات .

وقد عرف أندريه لالاند André Lalande العقلية بأنها مجموعة من الاستعدادات الفكرية وطبائع الروح ، ومعتقدات أساسية عند الفرد ،

وفى التحليل الأول الذى اقترحناه للعقلية ، أوضحنا ثلاثة أطر رئيسية يمكن للمرء أن يلبسها فى جميع المجتمعات، من المجتمعات التى هى أكثر بدائية إلى المجتمعات التى هى أكثر تعقيدا وهى :

(١) علم القوانين الذى يحكم العالم أعنى التفسير الحقيقى أو الوهمى للعالم.
(٢) علم الأخلاق وهو مجموعة القواعد والمعتقدات التى تختص بعلاقات الرجال فيما بينهم وتحكمها .

(٣) فنون الإنتاج ونعنى مجموعة المعارف والطرائق الفنية التى عن طريقها يعمل أفراد المجتمع لسيادة الطبيعة .

وهذه الأطر فى كل مكان ، ولكن الذى يجعلها تختلف وتتنوع من مجتمع إلى آخر هو محتوى العقلية . وهذا المحتوى نتيجة للجهود التى تم بواسطة كل حضارة وبعهودها للوصول إلى معرفة الحقيقة على أوسع نطاق ، ويعتمد هذا المجهود على الفحص والعمل والتكليف فى وقت واحد ، وعلى ذلك تأتى العقلية من الثقافة النوعية لمجموعة من الناس .

وينبغى علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا :

(١) الاتجاهات الديناميكية الرئيسية مثل : الحاجات والغرائز والميول ، ولكن هذه الاتجاهات لها طابع مشترك لا يظهر لنا إلا تحت الصورة أو الشكل الذى تمنحه الحياة الاجتماعية هذه الاتجاهات .

(٢) درجات الفهم التى بدونها لا توجد فكرة ، ولا أى أثر لعمل فى أى مجتمع ، وهذه الدرجات هى بالضرورة المكان والزمان والمشاركة والسببية ، وأحكام القيمة وأحكام الحقيقة . ويجب أن نعلم أن هذه الفئات من وجهة نظر دركهم نتائج لدوافع اجتماعية .

وقد تقابلنا بعض « صور للانتقال » بمناسبة التحدث عن العقليات :
فالسحر مثلاً يمثل صورة من صور هذا الانتقال : فتارة يكون علماً
تكنيكياً غير قائم على أسس علمية ، وتارة أخرى يندمج مع المعتقدات
الدينية ، ولكن الأديان استطاعت أن تتخلص شيئاً فشيئاً من السحر .
وقد ساعدت الثورة المسيحية على تطور العلوم والفنون المادية بجعلها
مستقلة استقلالاً كلياً عن المعتقدات .

ومن الدراسات المهمة للنفسية الاجتماعية دراسة الفكرة الاجتماعية
للبدائين ، ومعتقدات المجتمعات القديمة والبدائية ، وقد هيا صغر هذه
المجتمعات وعدد أفرادها القليلين وتميزها الضعيف وضيق معارفهم ،
للفكرين أن يأخذوا فكرة جامعة عن عقليتهم ، وعلى ذلك فالوظائف
الرئيسية التي تشكل مجتمعاتهم تبدو واضحة لأنها ، ليست غارقة تحت
طائفة من النظم التي يتلو بعضها بعضاً .

الارجاع النفسى

L'Interpsychologie

وهذه الدراسة تضع المشكلة الرئيسية لأشكال العمل في المجتمع
على عاتق الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع .

ولكن هل يمكن أن يكون هذا العمل مباشراً ، أعنى أن يمارس بطريقة
لا شعورية من داخل أنفسنا ؟ هذا السؤال يعتبر من أدق الأسئلة
وأكثرها حساسية لعلم الاجتماع ، لأن المفهوم العام للعلاقات الإنسانية

الحواس التي تتعلق بالقانون والأخلاق والتنظيم السياسي تتغير من وقت إلى آخر .

وإذا جاز القول بأن الإنسان يستطيع أن يكون لديه إدراك مباشر بحالات المجتمع الذي هو جزء منه ، فإنه ينتج عن ذلك زيادة قوة المعتقدات الروماتيسكية . وسوف نكون مضطرين أن نعالج بكل احترام « قفواتنا » كأنها رسائل ليست موحى بها من الآلهة ، لكن موحى بها من « الوجدان الاجتماعي » ، وعندما نقبل هذه النظرية التي ستكون نتيجة البالغة نوعاً من التكهنات الاجتماعية ، فإنه ستمنح عن ذلك تلك المناقشة التي تريد أن تعرف : من له حق تمثيل الوجدان الاجتماعي ؟ هل ستكون لأقلية ، أي لطائفة رجال الدين التي تدعى لنفسها النيابة عن أفراد المجتمع في تمثيله للوجدان الاجتماعي ؟ أو أن لكل شخص صوتاً في تمثيل هذا الحق ، ومن هذا الحق ، تتولد المشكلات التقليدية للذاهب الدينية والسياسية ؟ .

ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يبدو أن هناك حقائق غير قابلة للنقاش تسمح بإثبات إمكانية إدراك مباشر للحواس الداخلية الاجتماعية . ولا ننسى أنه حتى هذه الحواس الداخلية الاجتماعية لتركيبنا العنصري الخاص غير واضحة تمام الوضوح بمعنى أنه قد تكون هناك أمراض خطيرة من مدة طويلة كامنة في تركيبنا العضوي وهي خافية علينا دون أن نشعر بها . وعلى هذا المنوال ، قد تكون هناك تغييرات أو اضطرابات اجتماعية موجودة وتعبير حياتنا دون أن نشعر بها . وربما لاندرک نتائجها . وقد تكون النتائج قابلة للتأويل والمناقشة .

وعلى العكس يستحيل علينا أن ننكر أن تنوع الأنظمة الاجتماعية حتى الأنظمة التي لا نشعر بها ولا ندركها تثير في أساليب الحياة لعدد كبير من الأفراد تغييرات قد تؤثر تأثيراً كبيراً في سلوكهم وتصرفاتهم . وينتج عن ذلك ويبطئ تغييرات في الروح العامة وفي نوع الحياة . وعن هذا تنشأ في المجتمع قوى وآمال جديدة وتيارات جديدة كذلك من الأفكار .

وعلى ذلك ، ينبغي على النفسية الاجتماعية أن تدرس ما كان يطلق عليه تارد Tarde ، الإرجاع النفسى ، ويعنى بذلك مختلف الصور لردود الفعل النفسية المتبادلة بين أفراد ينتمون إلى حضارة واحدة . وهذه الصور الرئيسية هي التقليد ، والدليل ، والإقناع والإيحاء ، والكرامة ، ومنطق ظواهر الإحساسات المختلفة وصور الإكراه ، والرعب ونفسية الجماهير ، وظواهر الإيحاء العقلى ، والسلوك النفسى الاجتماعى الذى يأتى عن صور التسلسل . وتضيف إلى ذلك دراسة مختلف الصور للاعتقاد ، ودراسة ماهية الرضا بدرجاته المختلفة وتطبيقاته .

تصنيف المجتمعات

Typologie

من أحد أهداف علم الاجتماع الثابت ، الستاتيكي ، هو أن يهيئ للمفكرين إقامة خصائص مشتركة بين المجتمعات المختلفة . فهو يقوم بعمل تصنيف للمجتمعات ، وعقد مقارنة علمية بينها . ويشير «دركيم» إلى أن المقارنة الاجتماعية غالباً ما تدعو إلى المغالطة عندما لا تنصب على

مجتمعات لبست من طابع واحد . ولقد اقترحت كل الأنظمة الاجتماعية في الأصل كما سنرى فيما بعد مقاييس لتصنيف المجتمعات . وقد كان الفكر الاجتماعى جورج جرفيتش Georges Gurvitch يركز على على ضرورة البحث عن طريقة تصنيفية لدراسة المجتمعات ، فقد دعا إلى التمييز بين العلاقات الاجتماعية السائدة فى الفئات الصغرى المحدودة وبين العلاقات الاجتماعية فى التنظيمات والفئات الكبرى ، ويعين النوع الأول لدراسة العلاقات الاجتماعية المباشرة فى نشأتها التلقائية . وأهم ما يميز العلاقات الاجتماعية فى مثل هذه الأنماط التلقائية روح الزمان القائمة على وضع الفرد فى الجماعة . أما النوع ، الآخر ، من العلاقات الاجتماعية فيقوم على دراسة مظاهره الاجتماعية المنظمة بما تشتمل على قواعد ونظم وعادات تبلورت ورسخت فى التنظيمات أو المؤسسات الاجتماعية ، وهذا ما يفسر خضوع أفراد المجتمع للقواعد والتقاليد والعادات والعرف الراسخة فى مجتمعاتهم أو طبقاتهم وإلى السلطة الاجتماعية التى تمثلها مجموعة القوانين فى النواحي السياسية والاقتصادية والتشريعية . وسنرى فيما بعد ما الذى تم عمله فى هذا الميدان حتى وقتنا الحاضر ؟

فتباعد المجتمعات الحيوانية مثلاً فيما بينها وبساطتها فى ذلك تمنحنا نظرات إجمالية وتصنيفات موضوعية .

وعلىنا أن نميز بوجه عام خصائص الجمهور فى أثناء اجتماعاته العرضية واليومية ، وتجمعات الأفراد الدورية التى ترتبط غالباً بصورة من صور الهجرة والتنقل من وقت إلى آخر ، ثم يعقب ذلك التجمعات المتجانسة والدائمة التى يكون للشاركين فيها اتجاه إلى تثبيت حركاتهم الجماعية ، والتسك بها ، لا أن يعزل بعضهم بعضاً . وأخيراً المجتمعات المنظمة حيث يسود فيها

عنصر الطوعية لرئيس أو لأكبر ، وعنصر التعاون (العمل المشترك) ، وكذلك عنصر تقسيم العمل .

وقد تجتمع بعض الحيوانات وخاصة ذوات الثدي في شبه مجتمعات في أوقات خاصة مثل الذئب ، وعند الحشرات نشاهد أن هناك أنواعا منها تشارك الأخرى مشاركة صامتة ، ولا يبدو أنها تستطيع أن تحيا منعزلة عنها .

وتمارس معظم المجتمعات الحيوانية تقريبا فكرة الأرض المخصصة « العش » ، فهي تطارد ، بل تحطم كل من يحاول أن يشاركها في هذا العش من مجتمع آخر مثل مجتمع النمل والذئب والكلاب إلخ ، ويتشابه في هذه النقطة تشابها عظيما البدائيون الذين كانوا يستمدون غذاءهم ويكسبون حياتهم من الصيد ، وقد نجد في المجتمعات الحيوانية فكرة الحرب عندهم والصراع الدامي المنظم بين أفراد المجتمع الواحد . وقد يؤدي مثل هذا الصراع من مجتمع لآخر إلى تحطيم أحدهما أو تقهقره إلى الوراء .

ويؤدي كل مذهب اجتماعي دون شك إلى إقامة معيار لتصنيف المجتمعات . وقد أقيم مذهب « أوجست كونت » ، على علم القوانين الكونية المتغلب . أما عند « دركهم » ، فإن المعيار أخلاقي : وهذا المعيار قائم على المبدأ التشريعي المتغلب (فالقانون الرادع قائم على العقوبة الرادعة والقانون المدني قائم على العقوبة المصلحة) ، ولكن المعيار التشريعي ينوع نفسه على حسب طرائق تقسيم العمل .

ويرى هربرت سبنسر Herbert Spencer أن الترتيب قائم بالضرورة على طريق النشاط والتسلسل الطبقي المسيطر ، مثل المجتمعات العسكرية

أو المجموعات الصناعية . ونجد وجهة النظر هذه مطابقة لوجهة نظر سان
سيمون Saint - Simon .

وبعض المفكرين الاجتماعيين الآخرين ، يرجحون أولوية المعيار
الاقتصادي . وهكذا نرى أن ابن خلدون يصنف الشعوب تبعاً لـ نوع
النشاط الرئيسي الذي يستمد منه الناس حياتهم ، . أما كارل ماركس
فيصنف الشعوب على حسب فنون الإنتاج والوضع القانوني لتلك
الأموال والمعارات .

الفصل الرابع علم الاجتماع التطوري «الديناميكي»

إن هدف علم الاجتماع الديناميكي هو دراسة تغير المجتمعات وتغير صورها ووظائفها .

وهذا الفرع من علم الاجتماع يعتبر أكثر الفروع حيوية ونشاطا وقوة ، فقد اهتم علماء هذا الفرع بدراسة قضاياها ، وأخذوا على عاتقهم مسئولية البحث عن حلول لهذه القضايا .

ومفهوم التغير الاجتماعي مفهوم دقيق وفي حاجة إلى الدقة المتناهية في تحديد معالمة ، وذلك أولا بسبب الظواهر الدورية أو ذات المظهر الدوري . وهناك مصدر آخر لهذا الفرع من علم الاجتماع هو معنى الباتولوجية الاجتماعية . ومع ذلك ، فالمرء والحالة هذه تأخذ الحيرة بين التغير الكيفي والتغير الكمي . وغالبا ما تكون هناك علاقة بين هذين النوعين . ولكن ينبغي علينا أن ندخل في حسابنا نظام تعاقب هذين النوعين واختلاف تطوراتهما ، وتنقلاتهما في الزمان والمكان ، لأنه لا يتحتم على هذه الظواهر أن يتبع بعضها بعضا في نظامها المضاد . وتبع الحالات الخاصة ، فقد يحدث أن التغير الكيفي يسبق التغير الكمي ، أو العكس بالعكس . فمثلا ، يزداد تعداد سكان بلد ما دون أن يحدث أى تغير اجتماعي كيمي .

وبهذه المناسبة ، سبق لدرّكهم أن ركز دراسته على الفرق بين الكثافة العددية ، والكثافة الإجماعية . وتكشف الأخيرة عن مدى الاتصالات

بين الأفراد مثل المواصلات . والتبادل من كل نوع ، والتبادل الفكري والاقتصادى والتضامن الخ .

ولقد شعر مفكرو هذا الفرع من علم الاجتماع بأن هناك معنى للتوازن بين الاتجاهات والجماعات ؛ ففي أيامنا هذه ، تعمق علم الاقتصاد السياسى فى دراسة معنى التوازن . ويمكن القول بهذا الصدد إن جميع قوانينه ، وقوانين الأسواق ، وقوانين تحديد الأسعار ، وقوانين الدخل ، والقوانين التى تحكم الظواهر النقدية ، كل هذا يقرر أن هناك علاقات توازن .

ومعنى هذا التوازن فى علم الاجتماع أكثر تعقيدا من معناه فى علم الاقتصاد ، لأنه يحدث اختلافات ووظائف وعوامل عدة ، ومن جهة أخرى فإن التقلبات الاجتماعية ليست هى التغيرات ، وتتضمن هذه التقلبات تغيرا دائما للهيكل الاجتماعية ، أعنى أن النوع لا يكون متبوعا بالرجوع إلى نقطة انطلاقه ، والمقصود هنا انفصامات من التوازن غير قابلة للرجوع إلى الوراء . وهذا يوضح مدى مرونة الأشكال الاجتماعية وليونة التنظيمات فى حدود قابليتها للتشكل والتنوع .

ويمكن القول بطريقة مبسطة إن عدم وجود توازن اجتماعى لا ينشأ أبدا فى كل مكان فى وقت واحد ، وهذه الطريقة المبسطة تبدأ بواقعة جديدة تستند على أحد مخططات الحقيقة الاجتماعية . وتبعاً للظروف التاريخية غير المرتقبة ، فإن الاهتزازات الأولية تحدث فى أحد الميادين التى تتصل كل منها بما أسميناه بأطر العقلية . ومن مفاهيمنا العلمية ، ومن أفكارنا الأخلاقية أو التشريعية أو من طرائقنا الفنية ، فإن هذا الاهتزاز الأولى يمس الهياكل الأخرى ، فيحدث إعادة توازنات عامة . وعلى

ذلك ، فتقدم الطب ، وبخاصة منذ اكتشاف المصل ضد الجدري آثار الثورة السكانية . أعنى ازدياد معدل المواليد . وكذلك إطالة متوسط الحياة ، وينتج عن ذلك بدون شك إعادة تنظيم للمجتمع . وعلى العكس فقد حدثت الثورة المسيحية دون أن يسبقها تغيرات في العلم ، ولا في الطرائق الفنية ، ولكن انتصارها فرض بعد ذلك تنظيمات اجتماعية جديدة ، أثرت في معنى التطورات التالية للعلوم . وقد فرضت الثورة الصناعية من جانبها انقلابات سياسية وأخلاقية . فالتطور متشابه في كل الميادين ، ونظام التعاقب في هذا التطور هو وحده الذى يختلف .

وعلى ذلك فإن كل عقلية جديدة تحتاج إلى تنظيمات جديدة . ومن ذلك نفهم تقسيم سان سيمون المراحل العنصرية والمراحل الحرجة . وتوصف هذه المراحل الأخيرة بعدم التوافق بين المنظمات والعقليات . ويتخلف عن ذلك انتشار عدم الرضا العام وروح الحرمان من أخذ الحقوق وبعث الاعتداءات والانقلابات العنيفة .

ولكن كل تغير اجتماعى مشروط بشرط حدوث اختراع أو عدة اختراعات ، أعنى إدخال تجديدات أو ابتكارات في المحيطات العقلية والمادية ، فالاختراع هو الظاهرة الرئيسية للتاريخ ، والمقصود بالاختراع هنا اختراع فى القيم أو اختراع فى الطريقة الفنية ، أو اختراع علمى .

وقد اقترح تارد Tarde التفرقة بين الاختراعات العلمية التى يضاف بعضها إلى بعض والاختراعات الخاصة بأداب السلوك والسياسات التى تتناثر فيما بينها لأن الاختراع الأخلاقى يشمل عددا محدودا من المعايير . ويقوم التجديد فى هذا الميدان على التدليل أكثر مما يقوم على الاستنتاجات .

وتبعاً للعامل التاريخي، فقد تحدث أحياناً بعض الظروف التي يتنافس كثير من الدوافع خلالها على إثارة إعادة النظر للقيم وللصور الجديدة للتوازن بين المنظمات والطرائق الفنية والعقليات. وقد يحدث هذا التنافس عن طريق توافق الظواهر الدورية التي تضاف آثارها للأسباب الأخرى للاضطرابات. وعلى ذلك فالأزمة الاقتصادية التي سبقت عام ١٧٨٩ أو الانتكاسات التي تصاحب الاختراعات التكنيكية والاضطرابات الاجتماعية معاً تثار بواسطة الحروب وتوجد كذلك مراحل من التوازن العقلي غير الثابت التي تعتبر مهياة للارتدادات الجماعية. وقد يستمر فقدان التوازن وقتاً طويلاً تحت صور غير واضحة وقد يظهر فقدان التوازن هذا إذا ما جدت اضطرابات فجائية. وسنتحدث فيما يلي عن الصور الهامة لتظاهرات الدوافع المتنافسة :

(١) الثورات : ونحن نعرف جميعاً الأهمية الضخمة لمفهوم الثورة وكثرة الأبحاث التي كرسنا لدراسة هذا المفهوم. ومع ذلك فنحن نرى أن للحرب معنى واضحاً، أما معنى الثورة فهو اصطلاح يستخدم في عدد كبير من المعاني يختلف الواحد عن الآخر تمام الاختلاف، وتشمل هذه المعاني انقلاباً في المبادئ وفي التغيير المفاجيء للطبقة الموجهة أو لطريقة التسلسل الطبقي، وللتغييرات السريعة في القانون الخاص أو القانون السياسي في النقل الجماعي للملكيات والأموال وفي انقلابات البنيان السياسي وفي الطرائق الفنية، وفي الثورة الصناعية والإحصائية، وفي الأخلاق والعادات الخ.

(٢) علم الاجتماع الاستعماري : هو جزء متمم لعلم الاجتماع العام، ولكنه يأخذ صورة غير صورة الحرب، لأن العنف الأولي ذو أبعاد صغيرة جداً

بالنسبة للحرب . فالحملة الاستعمارية تأخذ في الأصل طابع عدم التناسب في الوسائل الفنية ، لأننا لا يمكن أن نتحدث عن الظاهرة الاستعمارية إلا عند ما نكون في مواجهة حضارات ذات مستوى فني وثقافي غير متساوين . ويسيطر دائماً الأكثر تقدماً على الأكثر تخلفاً . وتمثل الظاهرة الاستعمارية صورة سريعة لانتشار الطرائق الفنية وتغيير العقليات . ومن خصائص الأولى للظاهرة الاستعمارية التقليد أو المحاكاة ، يفرض على أي شعب المنظمات التي سبق لها وجود عند الشعب المستعمر . وهذا يعتبر محاكاة إجبارية مصحوبة بتغيير إلزامي .

ولكن نلس هنا تميزاً ملحوظاً : فالسلطة التي تفرض أحياناً هذه المحاكاة سلطة خارجية ، وهذا هو الاستعمار بمعناه .

وأحياناً أخرى ينبثق التغيير من السلطة الداخلية ، وتوضح لنا الأمثلة التاريخية أن التغييرات الشاملة الجامعة التي من هذا النوع والتي كتب لها النجاح كانت نوعاً من « الاستعمار الذاتي » ، لذلك كان التغيير الذي أحدثه بطرس الأكبر في روسيا ، وإمبراطور اليابان في عام ١٨٦٨ وكال أتاتورك في تركيا . وفي هذه الحالات الثلاث انبثقت القوة الدافعة من التغيير الذي أحدثه هؤلاء الرؤساء الموجهون ، وفي حالات أخرى يستند التغيير المبدئي إلى جزء أكثر اتساعاً من الطبقة الحاكمة كما في الصين أو على العكس إلى الجزء الأكثر عدداً والأكثر تواضعاً بالنسبة لمجموع الشعب كما في حالة الثورة المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية . وعلى ذلك وتبع هذه الحالات فإن الطبقة الحاكمة إما أن تتبع أو تسبق الجماهير في طريق التجديد .

المجربوس

وما نحن أولاء ، قد وصلنا إلى ظاهرة من الظواهر التي لم تدرس دراسة كافية من جانب علم الاجتماع باستثناء سينسر ، برغم المكانة التي تشغلها هذه الظاهرة في حياة المجتمعات ، ولا ننسى أن كثيراً من المدينيات تلاشت واندثرت معالمها بسبب الحرب . وحتى هذا الوقت تعتبر الحرب ميداناً لدراسة المؤرخين الذين يحددون ظواهرها العرضية ، والتي تستحق كثيراً من التأملات .

ومع ذلك فإن استمرار ظاهرة الحرب ، هذه الحقيقة التي نجدها في المجتمعات المختلفة ، من المجتمعات التي هي أكثر بدائية حتى المجتمعات التي هي أكثر تمدناً يضطرنا إلى أن نعتبرها ، سواء أردنا أم لم نرد ، وظيفة من بين الوظائف الاجتماعية التي هي أكثر دواما وثباتاً ، وتبدو لنا دراستها من الأهمية بمكان . وينبغي أن تحتل جزءاً كبيراً من أجزاء علم الاجتماع العام ، لأن الحرب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعدد كبير من الدوافع الاجتماعية المتداخلة ، ومن المستحيل علينا أن نفعل أيّاً من هذه العوامل .

وتقدم كل حرب حالة في حوادثها ونتائجها صوراً إحصائية وسياسية واقتصادية وفنية ، حتى فلسفية ودينية . ولنلاحظ أن نتائج الحروب هي النتائج الوحيدة التي يمكن بها أن ندرسها بطريقة موضوعية ، لأن الأسباب الحقيقية للحروب تكون لدينا غير واضحة وغير معروفة أو هي أسباب فرضية بحتة .

وإذن من الضروري جداً أن ننشئ فرعاً لعلم الاجتماع العام يخصص لدراسة الحروب وأشكالها المختلفة ونتائجها بطريقة موضوعية كذلك دراسة القوى الدافعة للحروب الدورية . ولذلك اقترحنا أن نطلق على هذا الفرع من الدراسة اسم « علم الحرب » وليس هذا المجرد المتعة الثافية في خلق كلمات جديدة في اللغة ، ولكن لأن اسم « علوم الحرب » هو الاسم الذى أطلق تقليدياً على فن الحروب (استراتيجية ، تكتيك ، تنظيم الجيوش الخ) الذى يدرس في الأكاديميات العسكرية وفى كلمات أركان الحرب .

ونضيف إلى ذلك أنه من الفائدة بمكان أن نتذكر ضرورة الدقة إلى حد ما في تحديد أفكارنا في مواد هذه العلوم لأن الحروب التى لم تكن حتى وقتنا الحاضر إلا مصائب وأحياناً كوارث ، اتجهت الآن إلى أن تصبح كوارث وانقلابات مدمرة للجنس البشرى . واليوم أضحت فنون التدمير أقوى بكثير من فنون الإنشاء والتعمير .

أهمية علم الاجتماع في الوقت الحاضر

وخلاصة القول ، نرى أن تطور العلوم الاجتماعية الخاصة لم تقلل شيئاً من أهمية علم الاجتماع العام . ويتطلب تصنيف المجتمعات ومقارنة بعضها لبعض الآخر إعداد « طبولوجيا » اجتماعية قائمة على معايير موضوعية لا على مفاضلات مذهبية ومن وجهة أخرى ، فإن علم الاجتماع التطورى « الديناميكى » وبخاصة بعض الظواهر يشتمل على فصول منفصلة تماماً عن علم الاجتماع العام .

وأخيراً فهل نحن في حاجة إلى أن نردد الأهمية الكبرى والفوائد الجمة التي يقدمها علم الاجتماع للإنسان ؟ وتنحصر مأساة العصر الذي نعيش فيه في التنقل التراجيدي بين حالة العطفولة للعلوم الاجتماعية ، والتقدم المذهل لفنون الإنتاج . وهل وصلت الإنسانية اليوم إلى مستوى من الوحشية والعنف أكثر مما وصلت إليه في الأزمنة البدائية ؟ وأفما زالت عقليتها عقلية طفل ؟ واليوم يغامر الإنسان بأن يكون ضخمة قوة دافعة غريزية تعمل على إثارة الاضطرابات والقلق الاجتماعية ، لأنها تخلق له مصائب فوق ماتحت له طاقته ، وليس هناك غير التعمق والدقة في دراسة نتائج حقائق المعارف الاجتماعية التي قد تهيم للإنسان البحث عن وسائل تحرره من القوى الاجتماعية الاستبدادية وإمكانية التغلب عليها ، وبذلك نستطيع أن نخلق توازناً جديداً بين علوم الإنسان وعلوم المادة .

فهرس

الصفحة

٣

الباب الأول

(عناصر تكوين علم الاجتماع)

- ٥ الفصل الأول : العصور القديمة والعصور الوسطى .
- ٢٧ الفصل الثاني : العصور الحديثة .
- ٥١ الفصل الثالث : القرن التاسع عشر .

الباب الثاني

(علم الاجتماع الحديث)

- ٧١ الفصل الأول : النظم الاجتماعية .
- ٩٧ الفصل الثاني : المدارس الاجتماعية .

الباب الثالث

(المواقف الحاضرة لعلم الاجتماع)

- ١١٧ الفصل الأول : التباعد بين المذاهب والنظريات .
- ١٢٥ الفصل الثاني : الهدف الحاضر لعلم الاجتماع .
- ١٣١ الفصل الثالث : علم الاجتماع الثابت « الستاتيكي » .
- ١٤١ الفصل الرابع : علم الاجتماع التطوري « الديناميكي » .

مطابع الدار القومية للطباعة والنشر

ت : ٤١٠١٣ — ٤٠٢٥٣

٤٠٥٨٨ — ٤٠٨١٤

هذا الكتاب

يتناول الكتاب مبادئ
الفكرية والأفكار الاجتماعية
من هذا الزاوية حتى هذا
نصفه، ويشرح نظرية عامة
على المبادئ الأساسية
والمبادئ الاجتماعية التي
تهدف إلى رفع شأن المجتمع
مع حديث موجز عن أهم
المبادئ، والكتابات التي
كلفتها من أجل تأسيس
المجتمع

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع مكيه - روض الفضا

٢٠١١ / ٤٠٧٢٢ } ٥١٥
٢٠١١ / ٤٠٧٢٢

Bibliotheca Alexandrina



0660274

